أعلام الفقهاء والمحدثين

الحارث بن أسد المحاسبي

العالم الزاهد الفقيه

إعداد

الشيخ كامل محمد محمد عويضة

دار الكتب العلمية

بيروت ـ لبنان

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ - تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣-٨٦٨٠٥١-٦٠٢١٣٣
فاكس: ٤٧٨١٣٧٣/١٢١٢/٠٠ - ٦٠٢١٣٣/٩٦١١/٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

ما من إنسان منصف، مستقيم النفس، راشد العقل، سليم القلب إلاَّ ويرى أن تشريع الله أحقّ بالإتباع، وكلما يزداد الإنسان تأمُّلاً لآياته البيِّنات، ويعمِّق النظر في الأحكام والمعاملات والحدود والعبادات، كلما يزداد يقيناً أن الإسلام دين الحق الذي لا يأتيه الباطل من يمين أو شمال أو من خلف أو من أمام.

لقد مرَّ على الإنسانية أكثر من ألف وأربعمائة عام على بزوغ فجر الإسلام، جرَّبت خلالها أنظمة وقوانين وعقائد مختلفة، وامتحنت بالتطبيق العملي شرائع اقتبستها من القدماء أو اخترعتها عقول بشرية ونفوس إنسانية، وما زالت حتى الآن تجرِّب كل يوم تقانين جديدة أو مستحدثة.. ثم ما تلبث أن تغيِّر إزارها كل حين إما بارتداء لباس الرهبان، أو التخلي عنها والاكتفاء بألبسة البحر العارية.

وما دامت القوانين الوضعية والتقانين البشرية ليست صادرة عن وحي السماء، فإنها ستكون مما لا شك فيه عبارة عن تجاريب تصلح مظهرياً في ظروف أو بيئات أو مجتمعات معيَّنة،

ولا تصلح في ظروف وأزمنة أخرى فكراً وسلوكاً وتطبيقاً. . .

والتشريع لا يحتمل التجربة، إذ يختلف في تطبيقاته عن العلوم العملية والمعملية، فإذا صلحت التجربة كطريق تمتحن فيه صدق الفروض العملية من كذبها، مما يستكشف عنه الجديد والميسر والمستحدث وينبذ القديم والمعقد. . فإن ذلك يمكن أن يطبق فحسب في الكيمياء والفلك والرياضة والطب والصيدلة والميكانيكا وغير ذلك من العلوم التطبيقية والعملية. . .

إلاَّ أن المنهج العلمي التجريبي كقانون لا يصبح صالحاً، إذا تعدى حدوده وأراد أن يتجاوز سياجه ليطبق قواعده على العلوم الحياتية، مثل الأخلاق والتربية وعلم النفس والاقتصاد والاجتماع والتشريع.

ذلك لأن العلوم الحياتية تتعلَّق بحياة الإنسان سلوكاً وفكراً وغاية وعقيدة، فإذا كانت عقيدة الإنسان فاسدة، فإن ذلك سيؤثر حتماً على نظرته للحياة.

وفي هذا الكتاب الذي بين يدي القارىء، أتينا على طرف من كلام الحارث المحاسبي مجتزياً من فنون تصانيفه وأنواع أقواله وأحواله بما ذكرنا إذ هو البحر العميق، ورواياته عن المحدثين المشهورين في تصانيفه مدوَّنة اقتصرنا منها على ما ذكرناه. ونسأل المولى القدير أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه

الكريم، وأصلّي وأسلّم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وكتبه

كامل محمّد محمّد عويضة

مصر. المنصورة. عزبة الشال

ش جامع نصر الإسلام

الحارث بن أسد المحاسبي

(١٦٥ ـ ٢٤٣ هـ)

١ ـ حياته ومنزلته:

حتى نستطيع الإحاطة بحياة المحاسبي ومنزلته التي فاقت كل وصف وتقدير علينا أن نقدِّم له بلمحة ولـو بسيطة عن طبيعـة التصـوف السنّي وخصائصـه الجوهـرية، وأهمّ شخصيـاته في مـدرسـة بغـداد، هـذه الشخصيــات التي وضعت أهم أسس التصوُّف السنّي وقواعده وشروطه حتّى أصبح علماً يعتد به في الفكر الإسلامي لأنه قام على الكتاب والسنّة والآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال الصحابة والتابعين.

نقول إذن، لقد اختص الصوفية المحقِّقون من أهل السنّة في معتقدهم وسلوكهم الذي يجب أن يكون مؤسساً على الشرع، باستنباط حقـائق الشرع من ظـاهر معـاني الكتاب ومـدلولاتـه العقلية، ثم جعلوا الشرع بألفاظه ومعانيه معياراً لتلك الحقائق العليـا المستنبطة في مجمـوع الشريعـة كتابـاً وسنّة، وإرجـاع القضايا إلى نصوص الشرع بعد التفقه فيه والتأدب بأدبه، قبل أن يسلكوا طريق التصوُّف ثم الاهتداء ثانياً، بهدي الكتاب والسنّة حال سلوكهم، كل ذلك مع الإمعان المستوعب في مدلول السنّة والكتاب إلى أسمى وأعمق معانيهما، جازمين بأن الشريعة إيمان فأعمال فأخلاق، ولذا كان صوفية أهل السنّة هم علماء بعلوم

الشرع، وعلماء بنظم المعتقد على أساس العقل، وعلماء بالله والنفس. ثم إن التصوف السنّي لما كان مختلطاً مع الفقه كان إسلامياً بحتاً.

كل هذا سوف نراه واضحاً كل الوضوح في صوفية مدرسة بغداد من أهل السنّة مبتدئاً بأكبر ممثِّل لهذه المدرسة، ألا وهو الحارث المحاسبي (توفي عام ٢٤٣ هـ)، ومختتماً بجعفر الخلدي (توفي عام ٣٤٨ هـ) الذي كان إليه المرجع في علوم القوم وكتبهم وحكاياتهم وسيرهم، ونستطيع القول بأن التصوُّف الإسلامي قد تميَّز بالنمو والازدهار في هذه الفترة التي تبدأ منذ النصف الأول من القرن الثالث حتى النصف الأول من القرن الرابع الهجري.

ويؤكد القشيري في رسالته بأن خواص أهل السنّة المراعون أنفاسهم مع الله تعالى، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة، قد انفردوا باسم التصوُّف، وقد ذكر مشايخ هذه الطريقة وأقوالهم ليدل على تعظيمهم للشريعة، والاقتداء الدقيق بسنّة الرسول، وحينئذٍ يقول ابن خفيف: «اقتدوا بخمسة من شيوخنا، والباقون سلّموا لهم حالهم، الحارث بن أسد المحاسبي، والجنيد بن محمّد، وأبو محمّد رويم، وأبو العباس بن عطاء، وعمرو بن عثمان المكي، لأنهم جمعوا بين العلم (أي الشريعة) والحقائق»[1]. ولم يقف الأمر عند حد تأسيس هذا المذهب وكثرة

(١) القشيري: الرسالة ص ١٢.

مشايخه الذين أعانوا على هذا التأسيس إما تصريحاً أو تلميحاً، بل يتجاوزه إلى أمر آخر. ذلك أن الصوفية أخذوا منذ هذه الفترة ينظِّمون أنفسهم طوائف وطرقاً يخضعون فيها لنُظُمٍ خاصة بكل طريقة، وكان قوام هذه الطرق طائفة من المريدين يلتفون حول شيخ مرشد يسلكهم ويبصرهم على الوجه الذي يحقِّق كمال العلم وكمال العمل(١).

وكان من هذه الطرق أو الفرق التي ظهرت في التصوف الإسلامي عامة في عصره الذهبي، وفي التصوف البغدادي خاصة، وهو عصر التصوُّف البحت الذي شهد معظم كبار الصوفية المبتكرين، وكان التصوف فيه بعيداً ـ نسبياً ـ عن الاختلاط بالفلسفة وعلوم الأسرار، كانت هذه الفرق عشر. فقد قسم الهجويري (توفي عام ٤٥٦ هـ) هذه الفرق إلى اثنتي عشرة فرقة، قبل منها عشراً ورد اثنتين وضعهما تحت اسم الحلولية. أما العشرة المقبولة فأطلق عليها أسماء مؤسِّسيها(٢).

وقد انتخبت من هذه الفرق أربعاً فقط تمثِّل مدرسة بغداد، مضيفاً إليها فرقة السقطية وهم على التوالي:

١ ـ المحاسبة: نسبة إلى الحارث بن أسد المحاسبي.

٢ ـ السقطية: نسبة إلى السري السقطي.

٣ ـ الجنيدية: نسبة إلى أبي القاسم الجنيد.

---

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، م ٨ ص ٢١١.

(٢) السبكي: طبقات الصوفية ص ٥٦.

٤ ـ النورية: نسبة إلى أبي الحسين النوري.
٥ ـ الخرازية: نسبة إلى أبي سعيد الخراز.

والخمسة المنتخبة ممن أجتمع لهم علم الظاهر والباطن ويمثلون التصوُّف السنّي الحقيقي، فهم على الترتيب حسب وفياتهم: الحارث المحاسبي، السري السقطي أبو الحسين النوري، أبو القاسم الجنيد، وأخيراً جعفر بن نصير الخلدي. أما أبو سعيد الخراز فقد خصصنا له فصلاً مستقلاً باسم «التصوُّف والصدق، أو الطريق إلى الله» في كتاب أسميناه «أعلام التصوف في الإسلام».

أما عن الحارث بن أسد، أبو عبد الله المحاسبي، فقد كان أحد من اجتمع له الزهد والمعرفة بعلم الظاهر والباطن، وله كتب كثيرة في الزهد، وفي أصول الديانات، والرد على المخالفين من المعتزلة والرافضة وغيرهما، وكتبه كثيرة الفوائد جمّة المنافع. وقد ذكر أبو علي بن شاذان يوماً كتاب الحارث في الدماء، فقال «على هذا الكتاب عوّل أصحابنا في أمر الدماء التي جرت بين الصحابة»، ونرجو أن نهتدي إلى هذا الكتاب، فهو لم يصلنا حتى الآن.

وكان المحاسبي من علماء مشايخ القوم بعلوم الظاهر، وعلوم المعاملات والإشارات. له التصانيف المشهورة منها: كتاب الرعاية لحقوق الله، وغيره (مثل كتاب التوهُّم: عني بنشره الدكتور أ. ج آربدي، وكتاب الوصايا: لا يزال مخطوطاً؛ أما

السبكي فقد ذكر المحاسبي ضمن طبقات الشافعية، وهو في الطبقة الأولى فيمن عاصر الشافعي (توفي عام ٢٠٤ هـ بمصر) واختار مذهبه وقد كان إمام المسلمين في التصوف والحديث والكلام، وكتبه في هذه العلوم أصول من يصنف فيها، وإليه ينسب أكثر متكلمي الصفاتية[1]. وقال عنه أيضاً إنه لو لم يكن من أصحاب الشافعي في الفقه والكلام والأصول والقياس والزهد والورع والمعرفة إلّا الحارث المحاسبي، لكان مغبراً في وجوه مخالفيه. وقد قال جمع من الصوفية إن كتبه تبلغ مائتي مصنف[2]. وهو بصري الأصل مات ببغداد سنة ٢٤٣ هـ، ويقول عنه أبو نعيم الأصبهاني بأنه كان لألوان الحق شاهداً ومراقباً، ولآثار الرسول عليه السلام مساعداً ومصاحباً، تصانيفه مدوّنة مسطورة، وأقواله مبوَّبة مشهورة، وأحواله مصحّحة مذكورة، كان في علم الأصول راسخاً وراجحاً، وعن الخوض في الفضول جافياً وجانحاً، وللمخالفين الزائفين قامعاً وناطحاً، وللمريدين والمنيبين قابلاً وناصحاً؛ وقيل إن فعل ذوي العقول، الأخذ بالأصول، والترك للمفضول، واختيار ما اختاره الرسول ﷺ[3].

---

(١) الصفاتية هم من المثبتة الذين أثبتوا لله صفات لا هي ذاته ولا هي غير ذاته وأهم ممثليهم في العالم الإسلامي هم ابن كلاب المحاسبي وقد انتقلت سمة الصفاتية إلى الأشرية النشار. نشأة فكر، جـ ١، ص ١٢٨.

(٢) ابن تقي الدين السبكي. طبقات الشافعية، جـ ٢، ص ٣٧، ط القاهرة الأولى.

(٣) أبو نعيم. الحلية، جـ ١٠، ص ٧٢ ـ ٧٤.

وقد ذكر ابن النديم أن للحارث من الكتب «كتاب التفكر والاعتبار»، وأنه كان من الزهّاد المتكلّمين على العبادة والزهد في الدنيا، والمواعظ، وكان فقيهاً متكلماً مقدماً[1]. بل إنه أحد الإعلام المذكورين المشهورين المشهود لهم بالفضل الذين جمعوا علوم المواريث إلى علوم الاكتساب الذين سمعوا الحديث وجمعوا الفقه والكلام واللّغة وعلم القرآن، تشهد بذلك كتبهم ومصنفاتهم وكان ضمن من صنفوا في المعاملات[2].

ويؤكد الغزالي في كتابه «إحياء علوم الدين» أن المحاسبي خير الأمة في علم المعاملة، وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآفات الأعمال، وكلامه جدير بأن يحكى على وجهة[3] ويرجع إلى هذا السبب في تسميته بالمحاسبي لكثرة محاسبته لنفسه.

٢ ـ شيوخه وتلاميذه وثناء العلماء عليه:

قال الخطيب: كان عالماً فهيماً وله مصنفات في أصول الديانات وكتب في الزهد[4]. روى عن يزيد بن هارون وغيره. وعن أحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفي وأحمد بن

---

(١) ابن النديم: الفهرست، ص ٢٦١.
(٢) الكلاباذي: التعرف المذهب، ص ١٢.
(٣) العروس: نتائج الأفكار، جـ ١، ص ٩٤.
(٤) أنظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني ٢/١١٦ ـ ١١٧.

القاسم بن نصر الفرائضي[1]. وأبو القاسم الجنيد بن محمّد الصوفي وأبو العباس بن مسروق وإسماعيل بن إسحاق الثقفي السراج وأبو علي بن خيرات الفقيه. قال أبو نعيم الخالدي في كتابه سمعت الجنيدي يقول مات أبو حارث المحاسبي يوم مات وأن الحارث لمحتاج إلى دانق فضة وخلف مالاً كثيراً وما أخذ منه حبة واحدة. وقال أهل ملتين لا يتوارثان وكان أبوه واقفياً.

قال الخطيب وللحارث كتب كثيرة في الزهد والرد على المخالفين من المعتزلة والرافضة وكتبه كثيرة الفوائد. ذكر أبو علي بن شاذان يوماً كتاب الحارث في الدماء فقال على هذا الكتاب عوَّل أصحابنا في أمر الدماء التي جرت بين الصحابة. قيل: إنه مات سنة (٢٤٣)، قال ابن حجر العسقلاني في تهذيب التهذيب. وقال أبو القاسم النصر أباذي[2] بلغني أن الحارث تكلَّم في شيء من الكلام فهجره أحمد بن حنبل فاختفى[3] فلما مات لم يُصَلّ عليه إلاَّ أربعة نفر.

وقال البردعي سئل أبو زرعة عن المحاسبي وكتبه فقال للسائل إيَّاك وهذه الكتب بدع وضلالات عليك بالأثر فإنك تجد فيه ما يغنيك عن هذه الكتب قيل له في هذه الكتب عبرة فقال من لم يكن له في كتاب الله عبرة فليس له في هذه عبرة

---

(١) الفرائضي نسبة إلى علم الفرائض.

(٢) النصر أباذي بفتح النون والراء الموحّدة وسكون الصاد المهملة آخره معجمة نسبة إلى نصر أباذ محلة بنيسابور، وبالري أيضاً.

(٣) أي الحارث.

بلغكم أن مالكاً أو الثوري أو الأوزاعي أو الأئمّة صنّفوا كتباً في الخطرات والوساوس وهذه الأشياء، هؤلاء قوم قد خالفوا أهل العلم يأتونا مرة بالمحاسبي ومرة بعبد الرحيم الديبلي[1]، ومرة بحاتم الأصم. ثم قال ما أسرع الناس إلى البدع. وروى الخطيب بسند صحيح أن الإمام أحمد سمع كلام المحاسبي فقال لبعض أصحابه ما سمعت في الحقائق مثل كلام هذا الرجل ولا أرى لك صحبتهم. قال ابن حجر: إنما نهاه عن صحبتهم لعلمه بقصوره عن مقامهم فإنه في مقام ضيق لا يسلكه كل واحد ويخاف على من يسلكه أن لا يوفيه حقه، وقال الأستاذ أبو منصور البغدادي[2] من أصحاب الشافعي كان إماماً في الفقه والتصوف والحديث والكلام وكتبه في هذه العلوم أصول من يصنف فيها وإليه ينسب أكثر متكلمي الصفاتية. ثم قال: لو لم يكن من أصحاب الشافعي في العلوم إلّا الحارث لكان مغبراً في وجوه مخالفيه. قال ابن الصلاح: صحبته للشافعي لم أرَ من صرَّح بها غيره، وليس هو من أهل الفن فيعتمد عليه في ذلك.

وقال الحافظ الذهبي في سير الأعلام والنبلاء: الحارث المحاسبي من الزهاد العارفين، شيخ الصوفية، صاحب التصانيف الزهدية. يروي عن يزيد بن هارون يسيراً، وطبقته.

---

(١) في القاموس: دبيل كزبير أو أمير أو كتب موضع بالشام منه عبد الرحيم بن يحيى.

(٢) طبقات الشافعية، الطبعة الأولى.

وروى عنه: أبو العباس بن مسروق الطوسي وغيره. وللحارث كتب كثيرة في الزهد، وفي أصول الديانات، والرد على المخالفين من المعتزلة، والرافضة، وغيرها، وكتبه كثيرة الفوائد، جمّة المنافع، وذكر أبو علي بن شاذان يوماً كتاب الحارث في الدماء فقال: على هذا الكتاب عوّل أصحابنا في أمر الدماء التي جرت بين الصحابة.

قال الخطيب[1]: أتانا أبو نعيم الحافظ حدثنا سليمان بن أحمد الطبراني حدثنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفي حدثنا الحارث بن أسد حدثنا محمّد بن كثير الصوفي عن ليث بن أبي سليم عن عبد الرحمن بن الأسود عن أبيه عن عبد الله بن مسعود. قال: شغل النبي ﷺ من أمر المشركين فلم يصلِّ الظهر، والعصر، والمغرب والعشاء، فلما فرغ صلاّهنّ الأوّل فالأوّل، وذلك قبل أن تنزل صلاة الخوف.

وروى الخطيب بسنده عن أم الدرداء عن أبي الدرداء، قال رسول الله ﷺ: «أفضل ما يوضع في ميزان العبد يوم القيامة، حسن الخلق».

(١) أنظر تاريخ بغداد، ٨/٢١٢.

٣ ـ نبذة عن كتبه وحياته :

روى الخطيب بسنده عن سعيد بن عمرو البردعي. قال شهدت أبا زرعة ـ وسئل عن الحارث المحاسبي وكتبه ـ فقال للسائل: إيَّاك وهذه الكتب هذه الكتب بدع وضلالات، عليك بالأثر، فإنك تجد فيه ما يغنيك عن هذه الكتب، قيل له في هذه الكتب عبرة، قال: من لم يكن له في كتاب الله عبرة فليس له في هذه الكتب عبرة، بلغكم أن مالك بن أنس وسفيان الثوري والأوزاعي، والأئمّة المتقدِّمين، صنَّفوا هذه الكتب في الخطرات والوساوس وهذه الأشياء؟ هؤلاء قوم خالفوا أهل العلم، يأتونا مرة بالحارث المحاسبي، ومرة بعبد الرحيم الديبلي، ومرة بحاتم الأصم، ومرة بشقيق، ثم قال: ما أسرع الناس إلى البدع.

وقال: حدثت عن دعلج بن أحمد. قال: سمعت القاضي الحسين بن إسماعيل المحاملي يقول قال لي أبو بكر بن هارون بن المجدر سمعت جعفر بن أخي أبي ثور يقول: حضرت وفاة الحارث ـ يعني المحاسبي ـ فقال: إن رأيت ما أحب تبسَّمت إليكم، وإن رأيت غير ذلك تبيَّنتم في وجهي. قال فتبسَّم ثم مات.

وروى الخطيب بسنده عن أبي القاسم النصر أباذي قال: بلغني أن الحارث المحاسبي تكلم في شيء من الكلام فهجره

أحمد بن حنبل، فاختفى في دار ببغداد ومات فيها، ولم يصلِّ عليه إلَّا أربعة نفر.

٤ ـ نبذة من سيرته:

عن أحمد بن محمّد بن مسروق قال: سمعت حارثاً المحاسبي يقول: ثلاثة أشياء عزيزة أو معدومة: حُسن الوجه مع الصيانة، وحُسن الخلق مع الديانة، وحُسن الإخاء مع الأمانة[1].

وقال الجُنيد[2]: كنت كثيراً أقول للحارث عُزلتي أنْسى. فيقول: كم تقول أنسي وعزلتِي، لو أن نصف الخلق تقرّبوا مني ما وجدتُ بهم أنساً، ولو أن نصف الخلق الآخر نأى عنّي ما استوحشت لبُعدهم. وقال: كان الحارث كثير الضرّ فاجتازني يوماً وأنا جالس على بابنا، فرأيت على وجهه زيادة الضرّ من الجوع. فقلت له: يا عمّ لو دخلت إلينا فنِلتَ من شيء عندنا وعمدت إلى بيت عمي كان أوسع من بيتنا، لا يخلو من أطعمة فاخرة لا يكون مثلها في بيتنا سريعاً. فجئت بأنواعٍ كثيرة من الطعام: فوضعته بين يديه، فمدّ يده فأخذ لقمة فرفعها إلى فيه فرأيته يلُوكها ولا يزدردها. ثم وثب فخرج وما كلّمني.

فلما كان الغد لقيتُه فقلتُ: يا عَمّ سررتَني ثم نغصّتَ عليّ، فقال: يا بني أما الفاقة فكانت شديدة وقد اجتهدتُ في أن أنال

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي، ٢/٢٤٠.
(٢) المصدر السابق.

من الطعام الذي قدَّمت إليّ ولكن بيني وبين الله علامة إذا لم يكن الطعام مُرضياً ارتفع إلى أنفي منه زفورة فلم تقبله نفسي، فقد رميت بتلك اللقمة في دهليزكم وخرجتُ.

وقال الجُنيد: مات أبو حارث المحاسبي، وإن الحارث لمحتاج إلى دانق فضّة. وخلّف أبوه مالاً كثيراً وما أخذ حبّة واحدة. وقال: أهل ملّتين لا يتوارثان. وكان أبوه واقفياً.

وروى الخطيب[1] بسنده عن عبد الله بن ميمون، قال سمعت الحارث المحاسبي يقول: أنشدني عبد العزيز بن عبد الله:

الخوف أولى بالمسـ ـىء إذا تألّه والحزَن
والحب يحسن بالمطـ ـيع وبالنفي من الدَّرَن
والشوق للنجباء والـ أبدال عند ذوي الفطن

وقال: قال ابن مسروق: سمعت حارثاً المحاسبي يقول: ثلاثة أشياء عزيزة أو معدومة، حُسن الوجه مع الصيانة، وحُسن الخلق مع الديانة، وحُسن الإخاء مع الأمانة.

وقال: قال ابن مسروق: سمعت الحارث المحاسبي يقول: لكل شيء جوهر، وجوهر الإنسان العقل، وجوهر العقل التوفيق.

وروى الخطيب بسنده عن الزنجاني قال: قال الحارث: ترك الدنيا مع ذكرها صفة الزاهدين، وتركها مع نسيانها صفة

---

(١) تاريخ بغداد، ٢١٣/٨.

العارفين. وقال الجنيد بن محمّد: كان الحارث المحاسبي يجيء إلى منزلنا ويقول أخرج معنا نُصْحِر، فأقول له تخرجني من عزلتي وأمني على نفسي إلى الطرقات والآفات، ورؤية الشهوات؟ فيقول: أخرج معي ولا خوف عليك، فأخرج معه، فكأن الطريق فارغ من كل شيء لا نرى شيئاً نكرهه، فإذا حصلت في المكان الذي يجلس فيه قال لي: سلنى، فأقول له: ما عندي سؤال أسألك، فيقول لي: سلنى عما يقع في نفسك، فتنثال عليّ السؤالات فأسأله عنها، فيجيبني عنها للوقت، ثم يمضي إلى منزله فيعملها كتباً. قال وسمعت الجنيد يقول كنت كثيراً أقول للحارث: عزلتي أنسى، تخرجني إلى وحشة رؤية الناس والطرقات؟ فيقول لي: كم أنسي وعزلتي؟ لو أن نصف الخلق تقرّبوا مني ما وجدت بهم أنساً، ولو أن النصف الآخر ناءٍ عني ما استوحشت لبعدهم.

وروى الخطيب بسنده عن علي بن خيران الفقيه قال: رأيت أبا عبد الله الحارث المحاسبي بباب الطلق في وسط الطريق متعلّقاً بأبيه، والناس قد اجتمعوا عليه يقول له: طلّق أمي فإنك على دين، وهي على غيره؟.

وقال الجُنَيد: خلّف له أبوه مالاً كثيراً فَتَركه، وقال: لا يتوارثُ أهل مِلَّتين. وكان أبوه واقفياً[1].

(١) أي يقف في مسألة خلق القرآن، فلا يقول: مخلوق أو غير مخلوق. والخبر في «حلية الأولياء» ١٠/٧٥، وفي «وفيات الأعيان» ٢/٥٧: لأن أباه كان يقول بالقدر.

قال الجُنيد: قال لي الحارثُ: كم تقول: عُزلتي أُنْسِي، لو أن نصف الخلق تقرّبوا مني، ما وجدتُ لهم أُنْساً، ولو أنَّ النصفَ الآخر نأوا عني، ما استوحشت[1].

قال الخطيب: المحاسبي كبيرُ القَدْرِ، وقد دخل في شيء يسير من الكلام، فنُقِم عليه. وورَد أنَّ الإمام أحمد أثْنَى على حالِ الحارثِ من وجه، وحذَّر منه.

قال ابنِ الأعرابي: تفَقَّه الحارثُ، وكتب الحديث، وعَرَف مذاهب النُّسَاك، وكان من العلم بموضعٍ، إلاَّ أنّه تكلّم في مسألة اللفظ ومسألةِ الإيمان. وقيل هجَرَهُ أحمد، فاختفى مُدّة[2].

٥ ـ الحارث المحاسبي وأحمد بن حنبل:

كان الإمام أحمد بن حنبل شديد التفكير على من يتكلم في علم الكلام خوفاً أن يجر ذلك إلى ما لا ينبغي. ولا شك أن السكوت عنه ما لم تدع إليه الحاجة أولى، والكلام فيه عند فقد الحاجة بدعة، وكان الحارث قد تكلم في شيء من مسائل الكلام. وقد قيل إن أحمد بن حنبل قد هجره لهذا السبب. ويقول: السبكي: «والظن بالحارث أنه إنما تكلّم حين دعت

---

(١) «حلية الأولياء»، ١٠/ ٧٤، و«تاريخ بغداد» ٨/ ٢١٣، و«طبقات الشافعية» للسبكي ٢/ ٢٧٦.

(٢) «تاريخ بغداد» ٨/ ٢١٥، ٢١٦، و«فيات الأعيان» ٢/ ٥٨. وانظر ما كان بينه وبين الإمام أحمد في «طبقات الشافعية» للسبكي ٢/ ٢٧٨، ٢٧٩.

الحاجة ولكل مقصد»[1]. وعلى الرغم من أن الصوفية يعتبرون ابن حنبل أحد أئمّتهم، إلاَّ أنه كان لا يعجبه من الصوفي أن يتكلم في علم الكلام، أو أن يكثر من الشطحات الصوفية ولقد كان بينه وبين الحارث صحبة، فلما سمعه تكلم في خلق القرآن نصح بالبعد عنه[2]، ولكن هذا الزعم غير صحيح بالمرة، وذلك لأن المحاسبي لم يقل بخلق القرآن بل كان يقرّر أن كلام الله صفة الله تعالى في ذاته غير مخلوق، ولما كان القرآن كلام الله تعالى على الحقيقة وأنه ليس بمخلوق[3] «فسيتبع ذلك بالضرورة أن يكون القرآن عند المحاسبي وغيره من أهل السنّة والسلف غير مخلوق».

بقي إذن الشطر الثاني من هذه الخصومة بينهما. فقد قيل لأحمد بن حنبل إن الحارث المحاسبي يتكلم في علوم الصوفية ويحتج لها بالآي والحديث. فهل لك أن تسمع كلامه من حيث لا يشعر؟ حينئذٍ حضر ليلة معه إلى الصباح، ولم ينكر من أحواله ولا من أحوال أصحابه شيئاً، فسئل عن ذلك فقال: لأني رأيتهم لمَّا أذَّن بالمغرب تقدَّم فصلّى، ثم حضر الطعام فجعل يحدِّث أصحابه وهو يأكل وهذا من السنّة.

---

(١) السكبي: طبقات الشافعية، جـ ٢، ص ٢٩.

(٢) أحمد عبد الجواد الدرمي: أحمد بن حنبل بين محنة الدين ومحنة الدنيا، ص ٢٥١، ط القاهرة ١٧٦١.

(٣) الكلاباذي: التعرف لمذهب، ص ١٨ ـ ١٩.

فلما فرغوا من الطعام وغسلوا أيديهم جلس وجلس أصحابه بين يديه وقال: من أراد منكم أن يسأل عن شيء فليسأل فسألوه عن الرياء والإخلاص وعن مسائل كثيرة فأجاب عنها واستشهد بالآي والحديث فلما مرّ جانب من الليل أمر الحا ث قارئاً يقرأ فقرأ فبكوا وصاحوا وانتحبوا، ثم سكت القارىء. فدعا الحارث بدعوات خفاف ثم قام إلى الصلاة، فلما أصبحوا اعترف أحمد بفضله قائلاً: كنت أسمع من الصوفية خلاف هذا، استغفر الله العظيم[1].

وقد طلب أحمد بن حنبل من إسماعيل بن إسحق السراج أن يهيّىء له مجلساً عند حضور الحارث وأصحابه بحيث يسمع كلامهم ويراهم ولا يرونه. فبكى الإمام أحمد حتى غشي عليه متأثّراً بموعظة الحارث حتى قال: ما أعلم أني رأيت مثل هؤلاء القوم، ولا سمعت في علم الحقائق مثل كلام هذا الرجل، ومع هذا فلا أرى لك صحبتهم ثم قام وخرج. وكان تعليق السبكي على هذه الحكاية هو «تأمل هذه الحكاية بعين البصيرة واعلم أن أحمد بن حنبل إنما لم يرَ لهذا الرجل صحبتهم لقصوره عن مقامهم. فإنهم في مقام ضيق لا يسلكه كل واحد فيخاف على سالكه، وإلّا فأحمد قد بكى وشكر الحارث هذا الشكر، ولكلٍ رأي واجتهاد»[2].

---

(١) الشعراني: الطبقات الكبرى، جـ ١، ص ٦٤.
(٢) السبكي: طبقات الشافعية، جـ ٢، ص ٣٩ ـ ٤٠.

ويتفق البيهقي مع السبكي في هذا الرأي، مضيفاً وجهة نظر أخرى حين يذهب إلى أنه من المحتمل أن يكون قد كره له صحبتهم لأن الحارث ـ إن كان زاهداً ـ فإنه كان عنده شيء من علم الكلام، وكان أحمد يكره ذلك، أو كره له صحبته من أجل أنه لا يطيق سلوك طريقتهم وما هم عليه من الزهد والورع؛ أما ابن كثير فكان موقفه مخالفاً تماماً لكلا الاتجاهين عند السبكي والبيهقي حيث يذهب إلى أن سبب كراهية الإمام أحمد لهذه الصحبة للحارث وأصحابه، هو أن في كلامهم من التقشُّف وشدة السلوك التي لم يرد بها الشرع، وكذلك التدقيق والمحاسبة الدقيقة البليغة ما لم يأت بها أمر(١).

وأضيف هنا ملاحظة ملفتة للنظر تعبِّر تعبيراً واضحاً عن أثر كراهية أحمد بن حنبل لمصاحبة الحارث المحاسبي، فقد قيل إن المشيِّعين لجنازة الحارث لم يتجاوزوا أربعة أشخاص وذلك بعد أن هجره الإمام أحمد بن حنبل. فقد اختفى الحارث المحاسبي في دار ببغداد ومات فيها. ولكن هل كان هذا تنفيذاً لوصيته بقلّة المشيِّعين، أم أن الرأي العام تأثَّر بخصومة الإمام أحمد له، خاصة وأن هذا العصر اتسم بتقدير العلماء في حياتهم وبعد مماتهم. وهذا هو ما حدث بالفعل لكل من معروف الكرخي وبشر الحافي الذي حشد الناس لجنازته.

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١٠، ص ٣٢٩.

وهكـذا نرى الإمـام أحمـد وهـو الفقيـه، كـان يميـل إلى الصالحين ويهش للفقراء منهم خاصة. وحكاياته مع معـروف الكرخي وبشر الحافي تؤيد ذلـك وتؤكده ولـذلك فـإني أعتبر خصومته للحارث المحاسبي أملاها كلامه في علم الكلام عامة لا بالنسبة لمشكلة خلق القرآن التي ينكرها المحاسبي مثله في ذلك مثل ابن حنبل وهي ليست خصومة مع الصوفية.

بقيت نقطة أخيرة في الصلة بينهما أحبّ أن أنبِّه إليها، وهي أن الأستاذ المرحوم الدكتور أبو العلا عفيفي قد قال نقلاً عن ابن تيميـة إن ابن حنبل كـان يسأل الحـارث في بعض المسـائـل ويقول: «ما تقول فيها يا صوفي»[1] ولكن هذه العبارة قد أسندت عن أبي حمزة نفسه حيث يقول أبو حمزة الصوفي، محمّد بن إبراهيم، وقد جالس أحمد بن حنبل وبشر الحافي: «كان الإمام أحمد بن حنبل يسألني في مجلسه عن مسائل ويقول: ما تقول فيها يا صوفي؟»[2].

٦ ـ إسناده للحديث:

حدث الحارث المحاسبي عن يزيـد بن هارون، وطبقتـه، وروى عنه أبو العباس بن مسروق الطوسي، وأحمد بن الجبار الصوفي، والشيخ الجنيد، وإسماعيل بن إسحق السراج، وأبو

(١) د. عفيفي: التصوف والثورة، ص ٢٨.

(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، جـ ١، ص ٢٩٠؛ القشيري: الـرسالـة، ص ٤٣٤؛ الشعراني: الطبقات الكبرى، جـ ١، ص ٨٥.

علي الحسين بن حـران الفقيه وغيـرهم[1]. وقد ذكـر الخطيب البغدادي له حديثين ويتفق معه في ذلك أبو نعيم الأصبهاني، أما السلمي فيتفق معهما في حديث واحد أورده.

قال الحارث بن أسد العنزي المحـاسبي: حدثنـا يزيـد بن هارون حدثنا شعبة عن القاسم بن أبي بزة عن عطاء الكيخراني عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال، قال رسول الله: «أثقل ما يـوضع في الميـزان حسن الخلق»[2]. والحـديث الـذي ذكـره الخطيب البغدادي هو: «أفضل ما يوضع في ميزان العبـد يوم القيامة حُسن الخلق»[3].

وحديث أبو نعيم الأصبهاني: «ما يوضِع في الميزان أفضل من خلق حسن»[4].

أما الحديث الآخر فهو قال أحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفي حدثنا الحارث بن أسد حدثنا محمّد بن كثيـر الكوفي عن ليث بن أبي سليم عن عبد الرحمن بن أسود عن أبيه عن عبد الله بن مسعود قال: «شغل النبي في شيء من أمر المشركين فلم يصلِّ الظهر والعصر والمغرب والعشاء فلما فرغ صـلاّهنّ

(١) السبكي: طبقات الشافعية، جـ ٢، ص ٣٧.
(٢) السلمي: طبقات الصوفية، ص ٥٦ ـ ٥٧.
(٣) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، جـ ٨، ص ٢١٢.
(٤) أبو نعيم: جـ ١٠، ص ١١٠.

الأوَّل فالأوَّل، وذلك قبل أن تنزل صلاة الخوف»[1].

وسوف نرى أن إسناد الحارث هـذه الأحاديث يتمشى مـع مذهبه في التصوف، فالتصوف عنده خلق، وهو أثقل ما يوضع في الميزان. ثم الحديث الثاني الذي يدلّ على وجوب القيام بها هو أفضل، فمثلاً الفرض أوجب من النافلة وكل ذلك نجده في كتابه «الرعاية لحقوق الله» حيث يقول: «أول منزلة من الرعاية، وأهلها أقوى الخلق في الرعاية لحقوق الله عزّ وجلّ مثل: الرعاية عند الخطرات»، ثم يقول: «وأوجب الله عزَّ وجـل أن لا ينال فرضة بما حرم على عباده ولا يؤثر على فرضة نافلة من يتقرَّب إليه، فعليك وعلى العباد أن لا يؤخِّروا من فرضة ما أوجب أن يبدأ به، ولا يقوموا بما أمر أن يؤخّر بعد غيره من الفرض ولا يتركوا فرضاً لطلب قربة بنافلة ولا غيرها»[2].

٧ ـ مع الحارث المحاسبي في كتبه وأقواله:

قال الجنيد: كان الحارث المحاسبي يجيء إلى منزلنا ويقول أخرج معنا نصحر، فقال لـه تخرجني من عـزلتي وأمني على نفسي إلى الطرق والآفات ورؤية الشهوات؟ فيقول: أخرج معي ولا خوف عليك، فأخرج معه فكأن الطريق فارغ من كل شيء. لا نرى شيئاً نكرهه فإذا حصلت في المكان الـذي يجلس فيه

---

(١) المحاسبي: الرعاية لحقوق الله، ص ٨١ ـ ٨٤، مراجعة وتقديم عبد الحليم محمود، طه عبد الباقي سرور، ط القاهرة.

(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، جـ٨، ص ٢١٣.

قال: «سلني فأقول له: ما عندي سؤال أسألك، فيقول لي: سلني عما يقع في نفسك، فتنثال عليّ السؤالات فأسأله عنها، فيجيبني عنها للوقت، ثم يمضي إلى منزله فيعملها كتباً»[1].

وقال الحارث المحاسبي: «عملت كتاباً في المعرفة وأعجبت به. فبينما أنا ذات يوم أنظر فيه مستحسناً له، إذ دخل عليَّ شاب عليه ثياب رثة فسلّم عليَّ وقال: «يا أبا عبد الله، المعرفة حق للحق على الخلق، أو حق للخلق على الحق؟ فقلت له: حق على الخلق للحق. فقال: هو أولى أن يكشفها لمستحقيها. فقلت: بل حق للخلق على الحق. فقال: هو أعدل من أن يظلمهم ثم سلّم عليّ وخرج. وقال الحارث: فأخذت الكتاب وحرقته، وقلت لا عدت أن أتكلّم في المعرفة بعد ذلك»[2].

وقد صنّف المحاسبي الكتب وتكلم فيها عن الجوع والفقر والوساوس والخطرات، فأخرج لنا كتباً عديدة حظينا منها بثلاث كتب، كان لبعضها أثر كبير في تصوّف الغزالي. وترك لنا أقوالاً في المحبة الإلّهية خاصة، أفرد لها رسالة عنوانها «في المحبة» ضاع أصلها ولم يبق منها إلاّ شذرات حفظها لنا أبو نعيم الأصبهاني في كتابه «الحلية»[3]؛ ونجد له أيضاً بعض متفرقات من أقواله أوردها لنا المؤرّخون نلمس منها منهجه في التصوف.

---

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، جـ ٧، ص ٢١٣.

(٢) الشعراني: الطبقات، جـ ١، ص ٦٤.

(٣) د. عفيفي: التصوف والثورة، ص ٢١٢.

أولاً: ولنبدأ بالكتاب الأول «النصائح»، أو «الوصايا» الذي يحدثنا فيه عن الحياة الإسلامية في عصره، وعن تقلباته الروحية، والمنهج الصوفي، وما تكشف له من حقائق، وما تجلى له من معارف. فلقد كان الحارث متعطشاً إلى المعرفة، والبحث والاطّلاع، وإلى الوصول لرأي لا يعتريه الشكّ، إلى رأي يقيني ثابت لا يتزلزل ولكنه بعد أن بحث زاد شكاً، واضطربت نفسه، وخشي أن يأتيه الموت فجأة قبل أن يعتصم بحبل الله المستقيم، فكدَّ وجدَّ ثم يئس من أن يصل إلى النتيجة. ولكن الله وفَّقه في النهاية إلى الاتصال بقوم صالحين، فسكن إليهم وأخلد لأن سيماهم على وجوههم تبعث الثقة وتهدي إلى الرشاد[1].

بدأ المحاسبي في كتابته لمقدمة هذا الكتاب بحديث «ستفترق أمتي ثلاث وسبعين فرقة، الناجية منها واحدة»، حيث يقول «أما بعد، فقد انتهى إلينا أن هذه الأمة تفترق على بضع وسبعين فرقة، منها فرقة ناجية والله أعلم بسائرها». ولقد تدبَّر المحاسبي أحوال الأمّة ونظر في مذاهبها وأقاويلها، فعلق من ذلك ما قدر له، ورأى اختلافهم بحراً عميقاً قد غرق فيه ناس كثُر، وسلّم منه عصابة قليلة، ورأى كل صنف منهم يزعم أن النجاة في تبعهم، وأن الهالك من خالفهم ثم رأى الناس أصنافاً.

---

(١) الغزالي: المنقذ من الضلال، ص ٤٠، مقدمة في قضية التصوف للدكتور عبد الحليم محمود والكتاب من تحقيقه، ط القاهرة ١٩٦٣.

فمنهم العالم بأمر الآخرة، لقاؤه عسير ووجوده عزيز.

ومنهم الجاهل، فالبعد عنه غنيمة.

ومنهم المتشبّه بالعلماء، مشغوف بدنياه مؤثراً لها.

ومنهم حامل علم منسوب إلى الدين، ملتمس بعلمه التعظيم والعلو، ينال بالدين من عرض الدنيا.

ومنهم حامل علم لا يعلم تأويل ما حمل.

ومنهم متشبّه بالنسَّاك، متجر بالخير لا غناه عنده، ولا بقاء لعلمه، ولا معتمد على رأيه.

ومنهم منسوب إلى العقل والدهاء، مفقود الورع والتقى.

ومنهم متوادون، على الهوى متفقون، وللدنيا يتناولون، ورياستها يطلبون.

ومنهم شياطين الإنس، عن الآخرة يصدُّون، وعلى الدنيا يتكالبون، وإلى جمعها يهرعون، وفي الاستكثار منها يرغبون، فهم في الدنيا أحياء، وعن العرف موتى، بل العرف عندهم منكر والسوء معروف.

حينئذٍ اتجه المحاسبي إلى كتاب الله وسنّة نبيه وإجماع الأمّة ليسقط عن قلبه الهوى، ملتمساً النجاة، مرتاداً لطلب الفرقة الناجية. فوجد أن سبيل النجاة في التمسُّك بتقوى الله وأداء فرائضه. والورع في حلاله وحرامه، وجميع حدوده والإخلاص لله تعالى وطاعته، والتأسِّي برسول الله، والفرقة الناجية هم قوم نجد فيهم دلائل التقوى، وأعلام الورع وإيثار الآخرة على الدنيا وهم مجتمعون على نصح الأمة، ولا يرجون أحداً في معصية

ولا يقنطون أحداً من رحمته؛ وهكذا يستمر في وصفهم حتى أصبح راغباً في مذهبهم، مقتبساً من فوائدهم، قابلاً لآدابهم، محباً لطاعتهم، لا يعدل بهم شيئاً، ولا يؤثر عليهم أحد ويقصد بهم الصوفية.

والغزالي يتفق تمام الاتفاق مع الحارث المحاسبي في كل ما سبق ذكره، فقد بدأ الغزالي في كتابته لكتابه «المنقذ من الضلال» بنفس الحديث الذي ذكره المحاسبي وتكاد بعض جمله تكون مأخوذة من كلام المحاسبي نصاً، مما دعا بعض المستشرقين إلى القول بأنّه تأثَّر به[1]، فيقول الغزالي مجيباً أحد المتسائلين: «إن اختلاف الخلق في الأديان والمِلل، ثم اختلاف الأمّة في المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق بحر عميق غرق فيه الأكثرون، وما نجا منه إلَّا الأقلُّون. وكل فريق يزعم أنه الناجي وكل حزب بما لديهم فرحون»[2].

ثم يعطينا الغزالي بحثاً طريفاً عن أصناف الناس، كان الغرض منه هو التعرُّف على عقيدة كل فرقة، واستكشاف أسرار مذهب كل طائفة ليميِّز بين محقٍّ ومبطل، ومتسنّن ومبتدع، فيقول:

١ ـ «لا أغادر باطنياً إلَّا وأحب أن أطلع على باطنيته.

٢ ـ ولا ظاهرياً إلَّا وأريد أن أعلم حاصل ظاهرته.

---

(١) الغزالي: المنقذ من الضلال، ص ٤١ ـ ٤٥، مقدمة المحقق.

(٢) المصدر السابق: ص ١٢٤.

٣ ـ ولا فلسفياً إلَّا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته.
٤ ـ ولا متكلماً إلَّا واجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته.
٥ ـ ولا صوفياً إلَّا وأحرص على العثور على سر صوفيته.
٦ ـ ولا متعبِّداً إلَّا وأترصَّد ما يرجع إليه حاصل عبادته.
٧ ـ ولا زنديقاً معطلاً إلَّا وأتحسَّس وراءه للتنبيه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته».

وإن كنا نرى بعض الخلاف بين تصنيف الغزالي لفرق الناس وطوائفهم، والتصنيف الذي ذكره المحاسبي، إلَّا أن ذلك يدل على نوع الثقافة والحياة التي كان يحياها الناس في عصر كل منهما فنجد الغزالي بعد ذلك يحصر أصناف الطالبين في أربع فرق وهي: المتكلِّمون، الباطنيّة، الفلاسفة، الصوفية.

أما عن علم الكلام فلم يكن في حقه كافياً، ولا لدائه شافياً، وأما الفلسفة فقد ذكر لها آفات كثيرة مما يدل على بطلانها عنده، وأما الباطنية أو مذهب التعليم فلهم شبهات ووجب الكشف عن حقيقة مذهبهم؛ ويذكر الغزالي بهذه المناسبة ما جرى بين الإمام أحمد والمحاسبي عندما صنَّف الأخير كتاباً في الرد على المعتزلة، فأنكر الإمام أحمد عليه ذلك. ولكن الحارث المحاسبي قال له: «الرد على البدعة فرض»، وهذا ما فعله الغزالي تماماً عندما بين تهافت الفلاسفة المشائين الإسلاميين، وكتب عن فضائح الباطنية.

أما الصوفية، فكان العلم عند الغزالي أيسر من العمل الذي هو صفة لهم فابتدأ بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم، مثل «قوت القلوب» لأبي طالب المكي، وكتب الحارث المحاسبي، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلي وأبي يزيد البسطامي، فأعجب الغزالي بالتصوف واتخذه طريقاً له، وهو العلم الذي يزيد صاحبه خشية وخوفاً ورجاء، وذلك يحول بينه وبين المعاصي وهو نفس أقوال المحاسبي[1].

ثانياً: أما كتاب «الرعاية لحقوق الله» فهو كتاب ضخم. وهو من المصادر الرئيسية التي يظهر أثرها بوضوح في كثير مما ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين، فلقد كان المحاسبي أستاذ الغزالي في معالجة المسائل الصوفية وعرضها وتحليلها وتعميق معانيها، والربط بينهما وبين المعاني الدينية الإسلامية. قال ابن عطاء الله السكندري[2]: «قرأت على أبي العباس كتاب الرعاية للمحاسبي فقال: جميع ما في هذا الكتاب يغني عنه كلمتان: أعبد الله بشرط العلم ولا ترضى عن نفسك أبداً ثم لم يأذن لي قراءته بعد»[3] ولا ندري لذلك سبباً!؟.

---

(١) الغزالي: المنقذ من الضلال، ص ١٢٥ ـ ١١٧.

(٢) «هو الشيخ تاج الدين بن عطاء الله السكندري الزاهد المذكر الكبير القدير، تلميذ الشيخ ياقوت وقبله تلميذ الشيخ أبي العباس المرسي. له كتاب التنوير في إسقاط التقدير، والحكم، ولطائف المتن. مات سنة ٧٠٧ هـ»، الشعراني: الطبقات الكبرى، جـ٢، ص ١٩.

(٣) السندوبي: أبو العباس المرسي، ص ٢٤.

وينقسم هذا الكتاب بعد ذكر معرفة التقوى وما هي، والتوبة وخوف وعيد الله، ورعاية حقوق الله عند الخطرات وغير ذلك مما يتصل بأعمال القلوب والجوارح، ينقسم إلى ثمانية هي على الترتيب:

١ ـ كتاب الرياء.

٢ ـ كتاب الأخوان ومعرفة النفس.

٣ ـ التنبيه على معرفة النفس وسوء أفعالها، ودعائها إلى هواها.

٤ ـ كتاب العجب.

٥ ـ كتاب الكبر.

٦ ـ كتاب الغرة.

٧ ـ كتاب الحسد.

٨ ـ كتاب تأديب المريد وسيرته وتحذيره.

وتلخص لنا هذه الفروع جميعها الموضوع الأساسي للكتاب وهو الإخلاص وتطهير النفس والحياة الأخلاقية الكاملة. ولقد قال ماسنيون عنه إنه قد بلغ في تحليل نزعات النفس ونزعات الهوى حداً لا يجارى. وقد سما فيه بالتحليل النفسي إلى مرتبة لا نجد لها مثيلاً في الآداب العالمية إلَّا نادراً[1].

ولقد جاء في هذا الكتاب بعض الأمور التي أقرها وأجمع

---

(١) المحاسبي: الرعاية، ص ١٣ ـ ١٤، مقدمة المحقق.

عليها المتصوفة من هل السنّة، وذلك مثل رؤية الله بالأبصار في الآخرة وأنه يراه المؤمنون دون الكافرين لأن ذلك كرامة من الله حيث يقول المحاسبي: «في الوقت الذي أمنوا فيه من كل ما كانوا يخافون، وحلُّوا في كل ما كانوا يأملون، وفيما لم تبلغه آمالهم في المقعد الصدق الذي وعدهم فيه بأن يريهم وجهه، ويبلغهم غاية الكرامة من رؤيته ورضوانه، فقال لهم في ذلك المقعد الذي ليس فوقه منزلة ولا بعده غاية وكرامة: «مرحباً بعبادي وزوارى وخيرتي من خلقي الذين رعوا عهدي وحفظوا وصيتي، وخافوني بالغيب»، وهو حديث عن النبي رواه عنه محمّد بن علي بن الحسين بن فاطمة ابنة النبي[1]، عندئذٍ أنجز الله ما وعد به عباده الأخيار من الرؤية والنظر إلى وجهه الكريم إذ يقول جلّ من قائل: ﴿إنَّ المتَّقين في جنَّات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾[2].

ثم يعرِّف التقوى بأنها اتقاء الشرك فما دونه من ذنب، من كل ما نهى الله عنه، أو تضييع واجب مما افترضه الله، وهو يستشهد بالآيات والأحاديث على ذلك وأصل التقوى عنده الخوف والحذر من الله الذي يقول ﴿ولمن خاف مقام ربّه جنتان﴾، ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى﴾. فأخبر العليم أن الخوف كان قبل التقوى. ونتيجة ذلك أن وعدهم الله الأمن قال

(١) المصدر السابق: ص ٢٣.
(٢) المصدر السابق: ص ٦٩.

﴿إنَّ المتَّقين في مقام أمين﴾. ومن التقوى كان الورع وهو مجانبة ما كره الله عزَّ وجلّ.

وكان الحارث ـ شأنه في ذلك شأن كل الصوفية ـ متفائلاً كل التفاؤل في عفو الله ومغفرته لمن تاب صادقاً في توبته، لأنه كريم يتقرَّب ممن يتباعد منه فكيف بمن يتقرَّب إليه؟ ويتحبَّب إلى من يتبغَّض إليه، فكيف بمن يتحبَّب إليه؟ أما الذي يبعث الفرد على التوبة وترك الإصرار ويتحول به عن خطاياه وذنوبه فهو الخوف والرجاء لربه لأن الله نهاه عما يهوى قلبه وتشتهيه نفسه. والخوف الدائم هو صفة أولياء الله حيث يقول الرب ﴿يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين﴾ الآية[1]. وإننا لنجد أثر منصور بن عمّار واضحاً كل الوضوح في أقوال الحارث المحاسبي عندما تحدث منصور عن التقوى المؤسسة على الخوف والرجاء.

وعندما يتحدث المحاسبي عن الخطرات في اعتقاد القلوب، فإنه يطلب من العبد التثبُّت بالعلم الدالّ على الخطرات حتى يستدل فيعلم من أي الوجوه والخطرة حين تعرض، فيجعل الكتاب والسنّة دليله. فإن لم يتثبَّت بعقله ويجعل العلم دليله، لم يبصر ما يضره مما ينفعه. وهو هنا يقصد العقل المؤسس على الكتاب والسنّة أي العلم. فالإنسان يعرف بالعلم ويثبت بالعقل،

(١) المحاسبي: الرعاية، ص ١٥ ـ ٥٠.

ويضرب لهما مثلين طريفين. فمثل البصر الصحيح كمثل العقل، ومثل السراج كمثل العلم. ثم يربط بينهما فيقول «ومثل النظر بالتثبُّت مثل التثبُّت بالعقل والاستضاءة بالعلم وعرض ما يخطر على الكتاب والسنّة»[1] وهو هنا على العكس من المعتزلة التي تقدم العقل على الكتاب والسنّة.

ويضرب لنا أمثلة متعددة من هذه الخطرات التي تخطر بالقلب حين يقول «وقد يقبل الخطرة، يرى أنها داعية إلى سنّة وهي بدعة، وقد يرى أنها داعية إلى طاعة كالخطرة تدعو إلى الإخلاص بترك العمل وإلى التنزه عن الخلق بالفكر، وإلى القدر بتنزيه الله عزّ وجلّ (أي القول بالحرية والإرادة ويقصد بهم المعتزلة)، وإلى رأي جهم بن صفوان بنفي التشبيه (أي أن الصفات عين الذات)، وإلى النسبية بنفي رأي جهم، وإلى الاعتزال بتثبيت الوعيد، وإلى الخروج بالسيف بالغضب لله عزّ وجلّ (أي الخوارج)، أو إلى الإرجاء بتعظيم الأقدار وتنزيه الإيمان من النقصان (أي المرجئة)»[2]. وهنا يتأكد لنا موقف الحارث المحاسبي من الفرق الكلامية وبغضه لها ومهاجمته لأرائهم المختلفة المتصلة بنظرية التوحيد.

ومن الغريب حقاً أن يشير المحاسبي إلى قوم أشار إليهم فيما بعد عدو التصوف السلفي ابن الجوزي في كتابه «تلبيس إبليس»

---

(١) المصدر السابق، ص ٧٩ ـ ٨٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٨١.

حيث يقول الحارث «قد يدعوه العدو إلى الابتداع في زهده وفي رضائه وتوكله فيخالف زهد الأئمة المتقدمين وتوكلهم ورضاهم ويقينهم، بمخالفة السنّة واعتقاده البدعة، وهو يرى أنها سنّة».
كما اعتقد قوم الزهد في الدنيا بتضييع العيال، وبترك وجوب حق الوالدين، والتوكل بترك الاكتساب على الأهل والأولاد والخروج في السفر بلا زاد، والرضا بالسرور بالبلاء إذا وقع بالمسلمين، وبتحريم الدواء والدعاء، وترك التمني أن المعاصي لم تكن، وبالاشتغال بالله عزّ وجلّ بترك الفرائض، وبترك النوافل ودعوى البصائر واستنارة القلوب بادعاء علم الغيوب. من القطع على ما في ضمائر الخلق، وما يسرُّون ويكتمون، ويحتجُّون في ذلك بآثار، مثل قوله ﷺ: «المؤمن ينظر بنور الله»[1].

ولا شك في أن الحارث المحاسبي يكشف لنا عن حقيقة بعض هؤلاء المتصوفة الزنادقة الذين ظهروا في عصره، والذين أباحوا لأنفسهم ما حرَّمه الله عليهم بحجة الزهد والتوكُّل والرضا وادّعاء علم الغيب، وقد أشار إليهم الرازي باسم «المباحية» وهم قوم يحفظون طاعات لا أصل لها وتلبيسات في الحقيقة وهم يدعون محبَّة الله تعالى، وليس لهم نصيب في شيء من الحقائق. بل يخالفون الشريعة ويقولون إن الحبيب رفع عنا التكاليف وهؤلاء شرّ الطوائف، وهم على الحقيقة على دين

(١) المحاسبي: الرعاية، ص ٨١ ـ ٨٢.

مزدك[1] (الذي ادَّعى النبوّة وأظهر دين الإبَاحة). وقد أشار إليهم أيضاً كل من القشيري في رسالته والغزالي في كتابه المنقذ من الضلال[2].

ثم نرى بعد ذلك المحاسبي الفقيه الذي يضع شروط أداء الفرض وترتيبها في الآداء والوجوب وهو هنا يعالجها كصوفي وزاهد حيث يقول: «إذا عرض للعبد أمران واجبان في وقت واحد بدأ بأوجبهما قبل الآخر الذي هو دونه في الوجوب، أو عرض له واجبان أحدهما له وقت يفوت والآخر لا يفوت وقته، بدأ بما يفوت وقته قبل الآخر. فإن كان في فرض فعرض له فرض آخراً وجب منه، قطع ما هو فيه ودخل في أوجبهما. وإن عرضت له نافلة وهو في واجب لم يقطعه من أجلها وكذلك الفضل والتطوع. يبدأ بالأفضل فالأفضل كما كتبت له وعلى قدر الأوقات»[3].

ولا غرو فالكتاب طويل وشاق، ولذا أجد أنه من اللازم والواجب عليّ أن أقتصر على اقتباس بعض التعريفات التي وردت فيه، وعلى سبيل المثال لا على سبيل الحصر يقول المحاسبي:

(١) فالرياء ـ وهو الكتاب الأول عنده ـ هو إرادة غير الله عزّ

(١) فخر الدين الرازي: اعتقادات فرق المسلمين، ص ١٥.
(٢) القشيري: الرسالة، ص ٢ ـ ٣، الغزالي: المنقذ من الضلال، ص ١٩١.
(٣) المحاسبي: الرعاية، ص ١٠٣.

وجلّ بالطاعة، فالرياء هو إرادة المخلوقين بطاعة الله.

(٢) والعجب: وهو آفة في كثير من العباد وهو يعمي القلوب حتى يرى المعجب أنه محسن وهو مسيء، وأنه ناجٍ وهو مهلك، وأنه مصيب وهو مخطىء.

(٣) والكبر: عظيم الآفات، عنه تشعب أكثر البليات. والكبر لا يحق إلاَّ لِله عزّ وجلّ، ولا يليق ولا يصلح لمن دونه.

(٤) والغرة: خدعة من النفس والعدو بذكر الرجاء بالتوحيد، أو بالآباء الصالحين أو بعمل قليل ضعيف، فتطيب نفسه بتلك الخدعة حتى تهون عليه ذنوبه لظنه أنها مغفورة.

(٥) والحسد: في الكتاب والسنّة على وجهين، أحدهما غير محرَّم مثل المنافسة والآخر محرَّم وهو الذي ذمّه في كتابه، والرسول في سنّته، كراهة النعم أن تكون بالعباد ومحبة زوالها[1].

ثالثاً: أما كتاب «التوهم» فقد بني على أساس في الدين والتصوّف معروف، وهو «الخوف والرجاء»، أو «الترهيب والترغيب» وقد استعمل المحاسبي توهمه وبعبارة أخرى خياله في وصف شعور أهل الجنة وأهل النار، وما يلقون من سعادة وشقاء ونعيم وعذاب.

فنجده يصف يوم القيامة فيقول «ولا ظلّ لأحد إلاَّ ظل عرش

---

(١) المحاسبي: الرعاية، ص ١٣٤ ـ ٤٢٤.

رب العالمين فمن بين مستظلٍّ بظلِّ العرش، وبين مضحو بحر الشمس قد صهرته بحرها واشتد كربه وقلقه من وهجها ثم ازدحمت الأمم وتدافقت؛ فدفع بعضها بعضاً وتضايقت فاختلفت الأقدام وانقطعت الأعناق من العطش، واجتمع حرّ الشمس ووهج أنفاس الخلائق وتزاحم أجسامهم، ففاض العرق منهم سائلاً». ثم يقول بعد ذلك «فما ظنك بيوم ينادي فيه المصطفى آدم، والخليل إبراهيم، والكليم موسى، والروح والكلمة عيسى مع كرامتهم على الله عزّ وجلّ وعظم قدر منازلهم عنده، كلٌّ ينادي: نفسي نفسي، شفقاً من شدة غضب ربه»[١].

ثم نرى في الكتاب أفكاراً وردت في كتاب الرعاية، وذلك مثل رؤية الله في الآخرة حيث يقول عن ابن مسعود إنه بدأ باليمين فقال «والله ما منكم من أحد إلا سيخلو به الله عزَّ وجلّ كما يخلو أحدكم بالقمر ليراه». وحديث الرسول: «ليقف أحدكم بين يدي الله تبارك وتعالى ليس بينه وبينه حجاب يحجبه، ولا بينه وبينه ترجمان يترجم عنه فيقول: ألم أوتك مالاً؟ فيقولن: بلى. فيقول ألم أرسل إليك رسولاً؟ فيقولن؛ بلى ثم ينظر عن يمينه فلا يرى إلّا النار، ثم ينظر عن شماله فلا يرى إلّا النار فليتقِّ آلام النار ولو بشق ثمرة، فإن لم يجد فبكلمة طيِّبة»[٢].

---

(١) كتاب التوهم، ص ٨ ـ ١١، عني بنشره أ. ج أبدي، ط القاهرة ١٩٣٢.
(٢) المصدر السابق: ص ١٩ ـ ٣٠.

ويضع المحاسبي الأولياء في منزلة تنجيهم من هول ذلك اليوم فإن أهوال يوم القيامة إنما تخفّف على أولياء الله الذين توهموها في الدنيا بعقولهم فعظم خطر النجاة عندهم، فتحملوا من ثقل همومها في الدنيا على قلوبهم وحرقة خوفها على نفوسهم فخفّفها في القيامة بذلك عليهم مولاهم، لأنه آلى على نفسه ألّا يجمع على أوليائه الخوف في الدنيا والآخرة[1].

ثم هناك رؤية الله في الجنّة وهي رؤية تختلف عن مثيلتها يوم القيامة حيث يقول المحاسبي: «ونظرت إلى حجب الله وفرح فؤادك لمعرفتك أنك إذا دخلتها فإن لك فيها الزيارات والنظر إلى وجه ربك. فاجتمع طيب أراييح الجنة وحسن بهجة منظرها وطيب نسيمها وبرد جوّها[2]. ثم تقبل الملائكة على أولياء الله فقالوا بحسن نغماتهم: يا أولياء الرحمن إن الله ربكم يقرؤكم السلام ويستزيركم فزوروه لينظر إليكم وتنظروا إليه، ويكلّمكم وتكلّموه ويجيبكم وتجيبوه ويزيدكم من فضله ورحمته، إنه ذو رحمة واسعة وفضل عظيم. فلما سمعها أولياء الله وسمعتها معهم وثبوا مسارعين إلى ركوبها حباً وشوقاً إلى ربهم[3].

وهنا نرى أثر معروف الكرخي واضحاً كل الوضوح عن المحبّة الألهية. ومن الواجب ملاحظته أن المحاسبي يضع ترتيباً

---

(١) المحاسبي: التوهُّم، ص ٢٧ ـ ٢٨.
(٢) المصدر السابق: ص ٣٧.
(٣) المصدر السابق: ص ٥٤.

لهؤلاء الذين ينعمون بالاستماع إلى كلام حبيبهم فيقول: «فتوهم في مقعدهم الصدق الذي وعدهم مولاهم ومليكهم في القرب منه على قدر منازلهم. فهم بالقرب منه على قدر مراتبهم: فالمحبُّون له أقربهم إليه قرباً إذا كانوا في الدنيا أشد حباً، وأقرب إلى عرشه منهم القائمون بحجته عند خلقه، ثم الأنبياء عليهم السلام، ثم الصديقون على قدر ذلك في القرب من العزيز الرحيم، فأعظم به من مزور، وجلّ فتكبر من مزور»[1].

رابعاً: أما عن رسالته في «المحبة» التي بقي منها شذرات حفظها لنا أبو نعيم الأصبهاني، فقد تحدث المحاسبي عن المحبة المتبادلة بين العبد والرب، حين يصف لنا الصلة بين المحبة والشوق ونور كل منهما في القلب، وعما يطفىء هذا النور بعد إسراجه، وما يترتب على ذلك الانطفاء من آثار، فيقول ردّاً على سؤال سأله بعض أصدقائه عن المحبة الأصلية:

ـ «هي حب الإيمان: وذلك أن الله تعالى قد شهد للمؤمنين بالحب فقال ﴿والذين آمنوا أشدّ حبّاً لله﴾ فنور الشوق من نور الحب، وزيادته من حب الوداد. إنما يهيج الشوق في القلب من نور الوداد، فإذا أسرج الله ذلك السراج في قلب عبد من عباده لم يتوهج في فجاج القلب إلاَّ استضاء به. وليس يطفىء ذلك السراج إلاَّ النظر إلى الأعمال بعين الأمان. فإذا أمن على العمل

---

(١) المصدر السابق: ص ٥٧.

من عدوه لم يجد لإظهاره وحشة السلب العجب وتشرد النفس مع الدعوى».

وهنا نرى نفس الأفكار الواردة في كتاب «الرعاية» وتحمل العقوبات من المولى وحقيق على من أودعه الله وديعة من حبه فيدفع عنان نفسه إلى سلطان الأمان يسرع به السلب إلى الافتقاد»(١).

وليس من شك في أننا ندرك عند المحاسبي بعضاً من أفكار طائفة «الملامتية» التي من أهم أصولها عدم الاطمئنان إلى الأعمال مهما عظمت وبلغت من الصلاح حتى لا يحدث العجب في النفس نتيجة للشعور بالأمان وحسن الظن بالأعمال.

ولا يفرِّق المحاسبي بين الحب والشوق، فالحب هو الشوق، لأن الحب الصادق لا يشتاق إلاَّ إلى حبيب. وخاصة إذا كان الشوق فرعاً من فروع الحب الأصلي الذي يعرف بشواهده على أبدان المحبين وهذا ما حدث للسري السقطي كما يعرف أيضاً في ألفاظهم. ويعرف الحب بأخلاقه وكثرة الفوائد التي يجريها الله على لسانه بحسن الدلالة عليه(٢). وقد تحقق هذا للمحاسبي نفسه، فقد قيل إنه إذا مدَّ يده إلى طعام فيه شبهة تحرّك على أصبعه عرق فكان يمتنع منه، جعله الله له ذلك حفظاً له(٣).

---

(١) أبو نعيم: الحلية، جـ ١٠، ص ٨٧.

(٢) المصدر السابق: ص ٨٧.

(٣) العروسي: نتائج الأفكار، جـ ١، ص ٩٥.

وبهذه المناسبة نجد تعليقاً طريفاً لأبي العباس المرسي على هذه الحكاية وذلك عندما سأله السائل عن أبي بكر الصديق حين قدم إليه لبن فأكل منه فوجد كدرته في قلبه فتقيَّأه. ولم يكن له عِرق ليتحرَّك عليه إذا قدم له طعام فيه شبهة الصديق أولى بكل مريه من سائر الأمة، وقد وزن بالأمة فرجحها.

فقال أبو العابس المرسي: «الصديق رضي الله عنه كالوكيل المفرض إليه، مطهر من البقايا فلا يحتاج إلى إشارة. والحارث بقيت عليه البقايا فلذلك ألزم الإشارة حتى لا يدخل في شيء بنفسه وهواه. وقد تناول أبو بكر من ذلك اللبن حتى يتكلَّف طرحه بعد شربه، فيثيبه الله على ذلك، وأيضاً ليجعله قدوة للعباد فيقتدي به فهو من حسن الاختيار، حتى يفتح به وبأمثاله السبيل للعباد. كما أن من حسن اختبار الله لآدم أكله من الشجرة بعد أن نهي عنها حتى يتوب من العمل فيكون قدوة للتائبين»[1].

وعلامة محبة الله للعبد عند المحاسبي، هي أن يتولى الله سياسة همومه فيكون في جميع أموره هو المختار له فأخلاقه على السماحة، وجوارحه على الموافقة يصرخ به ويحثه بالتهديد والزجر. والدليل على ذلك خبر النبي: «إذا أحبَّ الله عبداً جعل له واعظاً من نفسه، وزاجراً من قلبه، يأمره وينهاه». ومن علامة المحبة أيضاً أداء الفرائض بمسارعة من القلب والجوارح والمحافظة عليها ثم بعد ذلك كثرة النوافل كما قال: «يقول الله

---

(١) حسن السندوبي: أبو العباس المرسي، ص ٧٠.

تعالى: ما تقرَّب إلى عبد بشيء أحبّ إليّ من أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدى يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، إن دعاني أجبته، وإن سألني أعطيته»[1]؛ وهذا القول إنما يتصل اتصالاً وثيقاً بنظرة أساسية عند المحاسبي وهي الجمع بين الحقيقة والشريعة فهو القائل «من صحّح باطنه بالمراقبة والإخلاص، زيَّن الله ظاهره بالمجاهدة واتباع السنّة»[2].

٨ ـ منهج الحارث المحاسبي في التصوُّف:

نتقل الآن إلى منهج المحاسبي في التصوُّف وهو منهج منطقي تحليلي يظهر فيه إدراكه للصلة بين الأسباب ومسبباتها في تطور الحياة الروحية في الإسلام عامة ومدرسة بغداد خاصة، ويتضح ذلك كله من تحليل لأسس العبادة حيث يقول «أصل الطاعة الورع، وأصل الورع التقوى، وأصل التقوى محاسبة النفس، وأصل محاسبة النفس الخوف والرجاء، وأصل الخوف والرجاء معرفة الوعد والوعيد ومعرفة أصل الوعد والوعيد عظم الجزاء، وأصل ذلك الفكرة والعبرة». وأصدق بيت قالته العرب قول حسان بن ثابت في الرسول:

ما حملت من ناقلة فوق رحلها ... أعفّ وأوفى ذمّة من محمَّد[3]

---

(١) أبو نعيم: الحلية، جـ ١٠، ص ٩٩.

(٢) القشيري: الرسالة ص ١٢، السلمي: طبقات الصوفية، ص ٩٠.

(٣) ابو نعيم: جـ ١٠، ص ٧٦.

ويضيف السبكي إلى قوله: وهذا حق، ونظير هذا البيت في الصدق قول حسان أيضاً:

وما فقد الماضون مثل محمّد ... ولا مثله حتى القيامة يفقد

وقوله ﷺ: أصدق كلمة قالها لبيد: «ألا كل شيء ما خلا الله باطل»[1].

وهذا الورع الذي هو أصل الطاعة، جعل المحاسبي لا يأخذ من ميراث أبيه شيئاً فقد قيل إنه ورث من أبيه سبعين ألف درهم فلم يأخذ منها شيئاً، لأن أباه كان يقول بالقدر، أي كان من القدرية القائلين بإنكار القدر (كما هو معروف عن المعتزلة) الذي يجب الإيمان به، حيث جعلوا الأفعال لفاعلين، وزعموا أن الله خلق الخير وأن العبد يخلق الشر، فأثبتوا لأنفسهم قدرة وفعلاً فسمُّوا لذلك قدرية فرأى من الورع أن لا يأخذ شيئاً من ميراث أبيه لاختلاف العلماء في تكفير القدرية. حينئذٍ قال المحاسبي: «صحَّت الرواية عن النبي أنه قال: «لا يتوارث أهل ملَّتين شيئاً»[2] بل كان يذهب إلى أبعد من ذلك، فقد رؤي المحاسبي بباب الطلاق في وسط الطريق متعلقاً بأبيه، والناس

(١) السبكي: طبقات الشافعية، جـ ٢، ص ٤١.
(٢) العروسي: نتائج الأفكار، جـ ١، ص ٩٥.

قد اجتمعوا عليه يقول له: «طلِّق أمي فإنك على دين، وهي على غيره»[1].

وقد وصلت محبّة المحاسبي لله وشدة تعلقه، إلى درجة أنه كان يرى كل شيء ما خلا الله باطلاً. فقد قال الجنيد تلميذ المحاسبي: «كنت كثيراً أقول للحارث عزلتي أنسي، فيقول: كم تقول أنسى وعزلتي؟ لو أن نصف الخلق تقرَّبوا مني ما وجدت بهم أنساً ولو أن نصف الخلق الآخر نأى عني ما استوحشت لبعدهم»[2] بل لقد قال وأنشد بين يدي الحارث المحاسبي هذه الأبيات:

أنا في الغربة أبكي ما بكت عين غريب
لم أكن يوم خروجي من بلادي بمعيب
عجباً لي، ولتركي وطناً فيه حبيبي

فقام يتواجد ويبكي حتى رحمه كل من حضره»[3]. وحبيبه هنا هو الله عزّ وجلّ حتى لقد قال عن المحبة: «هي ميلك إلى الشيء بكليتك، ثم إيثارك له على نفسك وروحك ومالك، وثم

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، جـ ٨، ص ٢١٤.
(٢) ابن الجوزي: صفوة الصفوة، جـ ٢، ص ٢٠٧.
(٣) السلمي: طبقات الصوفية، ص ٩٠.

موافقتك له سراً وجهراً، ثم علمك بتقصيرك في حبه»[1].

وأخيراً، لم يعدم المحاسبي أن يجد من يدافع عنه بعد موته. فلقد سئل أبو زرعة عن الحارث وكتبه فقال السائل: «إياك وهذه الكتب! هذه كتب بِدَع وضلالات. عليك بالأثر فإنك تجد فيه ما يغنيك فقيل له: في هذه الكتب عبرة فقال من لم يكن له في كتاب الله عبرة، فليس له في هذه الكتب عبرة، بلغكم أن سفيان ومالكاً والأوزاعي صنفوا هذه الكتب في الخطرات والوسواس. ما أسرع الناس إلى الإبداع». قال الذهبي مدافعاً عنه: «مات الحارث سنة ٣٤٣ هـ وأين مثل الحارث؟! فكيف لو رأى أبو زرعة تصانيف المتأخرين «كالقوت» لأبي طالب المكي، وأين مثل القوت؟! كيف لو رأى «بهجة الأسرار» لابن جهضم، و«علائق التفسير» للسلمي؟! كيف لو رأى تصانيف أبي حامد الطوسي (أي الغزالي) في ذلك على كثرة ما في الأحياء من موضوعات؟! كيف لو رأى «الفتية» للشيخ عبد القادر؟ كيف لو رأى «نصوص الحكم» و«الفتوحات المكية» (لابن عربي). بلى! لما كان الحارث لسان القوم في ذلك العصر، كان معاصره ألف إمام في الحديث فيهم مثل أحمد بن حنبل وابن راهويه. ولما صار أئمّة الحديث مثل ابن الدخميس، وأبي شحاته، كان قطب العارفين كصاحب النصوص وابن سبعين»[2].

(١) القشيري: الرسالة، ص ١٤٦.
(٢) ميزان الاعتدال، جـ ١، ص ٢٠٠.

٩ ـ وفاته :

قال ابن كثير في البداية والنهاية[١] : توفي الحارث المحاسبي سنة ثلاث وأربعين ومائتين. وقال يوسف بن إسماعيل النبهاني في جامع كرامات الأولياء[٢] مات المحاسبي ببغداد سنة ٢٤٣ . وقال ابن حجر العسقلاني في تهذيب التهذيب[٣] مات الحارث المحاسبي سنة ٢٤٣ من الهجرة.

١٠ ـ زهده وورعه :

كان لألوان الحق مشاهداً ومراقباً ولآثار الرسول مساعداً ومصاحباً. تصانيفه مدوّنة مسطورة، وأقواله مبوّبة مشهورة، وأحواله مصحّحة مذكورة، كان في علم الأصول راسخاً وراجحاً وعن الخوض في الفضول جافياً وجانحاً، وللمخالفين الزائغين قامعاً وناطحاً، وللمريدين والمنيبين قابلاً وناصحاً[٤].

وقيل إن فعل ذوي العقول، الأخذ بالأصول، والترك للمفضول، واختيار ما اختاره الرسول ﷺ. روى أبو نعيم في الحلية بسنده عن الجنيد بن محمّد قال: كان الحارث المحاسبي يجيء إلى منزلنا فيقول: اخرج معي نصحر فأقول

(١) البداية والنهاية لابن كثير ١٠/٣٤٤.

(٢) جامع كرامات الأولياء، ليوسف بن اسماعيل النبهاني، تحقيق ومراجعة ابراهيم عطوه عوض ٢/١٧.

(٣) تهذيب التهذيب لابن حجر ـ مرجع سابق.

(٤) حلية الأولياء لأبي نعيم ١٠/٧٣ ـ ٧٤. طبعة دار الكتاب العربي.

له: تخرجني من عزلتي وأمني على نفسي إلى الطرقات والآفات ورؤية الشهوات؟ فيقول: اخرج معي ولا خوف عليك. فأخرج معه فكأن الطريق فارغ من كل شيء، لا نرى شيئاً نكرهه فإذا حصلت معه في المكان الذي يجلس فيه قال لي: سلني، فأقول له: ما عندي سؤال أسألـك، فيقول لي: سلني عمـا يقع في نفسك، فتنثال عليَّ السؤالات فأسأله عنها فيجيبني عليها للوقت ثم يمضي إلى منزله فيعملها كتباً.

وروى أبو نعيم في الحلية بسنده عن الجنيد قال: كنت كثيراً أقول للحارث: عزلتي أنسي وتخرجني إلى وحشة رؤية الناس والطرقات؟ فيقول لي: كم تقول لي أنسى في عـزلتي؟ لو أن نصف الخلق تقرَّبوا مني ما وجدت بهم أنساً، ولو أن النصف الآخر نأى عني ما استوحشت لبعدهم.

وقال الجنيد: كان الحارث كثير الضر فاجتاز بي يوماً وأنـا جالس على بابنا فرأيت في وجهه زيادة الضر من الجوع فقلت له: يا عم لو دخلت إلينا نلت من شيء عندنا. فقال: أوَتفعل؟ قلت نعم وتسرّني بذلك وتبرّني فدخلت بين يديه ودخل معي وعمدت إلى بيت عمي ـ وكان أوسع من بيتنا لا يخلو من أطعمة فاخرة لا يكون مثلها في بيتنا سريعاً ـ فجئت بأنـواع كثيرة من الطعام فوضعته بين يديه فمدَّ يده وأخذ لقمة فـرفعها إلى فيـه فـرأيته يلوكهـا ولا يزدردهـا[1] فخرج ومـا كلَّمني، فلمَّا كان الغـد لقيتـه

(١) يزدردها: أي يأكلها.

فقلت: يا عم سررتني ثم نغصّت عليّ فقال: يا بني أما الفاقة[1] فكانت شديدة، وقد اجتهدت أن أنال من الطعام الذي قدمته إليّ، ولكن بيني وبين الله علامة إذا لم يكن الطعام عند الله مرضياً ارتفع إلى أنفي منه زفورة فلم تقبله نفسي فقد رميت بتلك اللقمة في دهليزكم وخرجت.

وقال الجنيد: مات أبو الحارث المحاسبي وأن الحارث لمحتاج إلى دانق[2] فضة، وخلف أبوه مالاً كثيراً وما أخذ منه حبة واحدة، وقال أهل ملّتين لا يتوارثان وكان أبوه واقفياً. وقال علي بن خيران الفقيه: رأيت أبا عبد الله الحارث بن أسد بباب الطاق في وسط الطريق متعلِّقاً بأبيه والناس قد اجتمعوا عليه يقول: طلِّق امرأتك فإنك على دين وهي على غيره.

وعن إسحاق بن الإمام قال حدثني أبي قال: سألت الحارث بن أسد المحاسبي: ما تفسير خير الرزق ما يكفي؟ قال: هو قوت يوم بيوم ولا تهتم لرزق غد. وعن الجنيد بن محمّد قال سمعت الحارث المحاسبي قال: فقدنا ثلاثة أشياء لا نكاد نجدها إلى الممات: حُسن الوجه مع الصيانة وحُسن القول مع الديانة، وحُسن الإخاء مع الأمانة. وقال عثمان البلدي: بلغني عن الحارث المحاسبي أنه قال: العلم يورث المخافة، والزهد

---

(١) الفاقة: الفقر والحاجة. المعجم الوجيز ـ فاق).

(٢) الدانق: سدس الدرهم.

يورث الراحة، والمعرفة تورث الإنابة. قال وقال الحارث: من صحّح باطنه بالمراقبة والإخلاص، زيَّن ظاهره بالمجاهدة واتباع السنّة لقوله ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينَّهم سبلنا﴾[1]. وعن الجنيد بن محمّد قال: قال الحارث: لا ينبغي للعبد أن يطلب الورع. روى أبو نعيم بسنده في الحلية عن الجنيد بن محمّد قال. قال الحارث: لا ينبغي للعبد أن يطلب الورع بتضييع الواجب. وقال: قال الحارث: إذا أنت لم تسمع نداء الله فكيف تجيب داعي الله؟ومن استغنى بشيء دون الله فقد جهل قدر الله. وقال: الظالم نادم وإن مدحه الناس، والمظلوم سالم وإن ذمّه الناس. والقانع غني وإن جاع، والحريص فقير وإن ملك.

١١ ـ أقوال المحاسبي في الطَّاعة:

روى أبو نعيم بسنده في حلية الأولياء عن الجنيد بن محمّد قال، قال الحارث المحاسبي: أصل الطاعة الورع، وأصل الورع التقوى، وأصل التقوى محاسبة النفس، وأصل محاسبة النفس الخوف والرجاء، وأصل الخوف والرجاء معرفة الوعد والوعيد، ومعرفة أصل معرفة الوعد والوعيد عظم الجزاء وأصل ذلك الفكرة والعبرة. وأصدق بيت قالته العرب قول حسان بن ثابت حيث يقول:

(١) العنكبوت، آية: ٦٩.

مـــا حملت مـن نـــاقـــة فـــوق رحلهـــا
أعـــفّ وأوفى ذمّـــة مـــن محـــمّـــد

وعن عبد الله بن ميمون قال سمعت الحارث بن أسد يقول: إن أول المحبة الطاعة وهي منتزعة من حب السيد عزّ وجلّ إذ كان هو المبتدىء بها، وذلك أنه عرفهم نفسه ودلَّهم على طاعته وتحبَّب إليهم، على غناه عنهم، فجعل المحبـة له ودائـع في قلوب محبيه، ثم ألبسهم النور الساطع في ألفاظهم من شدّة نور محبته في قلوبهم، فلما فعل ذلك بهم عرضهم سروراً بهم على ملائكته، حتى أحبهم الذين ارتضاهم لسكنى أطباق سمواته نشر لهم الذكر الرفيع عن خليقته قبل أن يخلقهم ومدحهم، قبل أن يحمدوه شكرهم، لعلمه السابق فيهم أنه يبلغهم ما كتب لهم، وأخبر به عنهم، ثم أخرجهم إلى خليقته وقد استأثـر بقلوبهم عليهم، ثم ردّ أبدان العلماء إلى الخليقـة، وقد أودع قلوبهم خزائن الغيوب فهي معلقـة بمواصلة المحبـوب، فلما أراد أن يحييهم ويحيي الخليقة بهم أسلم لهم هموهم ثم أجلسهم على كرسي أهل المعرفة فاستخرجوا من المعرفـة المعرفـة بالأدواء ونظروا بنور معرفته إلى منابت الدواء، ثم عرفهم من أين يهيج الداء، وبما تستعينون على علاج قلوبهم ثم أمـرهـم بإصـلاح الأوجاع، وأوعز إليهم في الرفق عند المطالبات، وضمن لهم إجابة دعائهم عند طلب الحاجات، نادى بخطرات التلبية من عقولهم في أسماع قلوبهم؛ إنه تبارك وتعالى يقول: يـا معشر

الأدلاء من أتاكم عليلاً من فقدي فداووه، وفاراً من خدمتي فردُّوه، وناسياً لأيادي ونعمائي فذكِّروه، لكم خاطبت لأني حليم، والحليم لا يستخدم إلاَّ الحلماء، ولا يبيح المحبة للبطالين ضناً بما استأثر منها، إذ كانت منه وبه تكون فالحب لله هو الحب المحكم الرصين، وهو دوام الذكر بالقلب واللسان لله وشدة الأنس بالله، وقطع كل شاغل شغل عن الله، وتذكار النعم والأيادي، وذلك أن من عرف الله بالجود والكرم والإحسان اعتقد الحب له إذ عرفه بذلك أنه عرفه بنفسه وهداه لدينه. ولم يخلق في الأرض شيئاً إلاَّ وهو مسخَّر له وهو أكرم عليه منه، فإذا عظمت المعرفة واستقرَّت هاج الخوف من الله وثبت الرجاء[1].

قلت خوفاً لماذا؟ ورجاء لماذا؟ قال: خوفاً لما ضيَّعوا في سالف الأيام لازماً لقلوبهم، ثم خوفاً ثابتاً لا يفارق قلوب المحبين، خوفاً أن يسلبوا النعم إذا ضيعوا الشكر على ما أفادهم، فإذا تمكَّن الخوف من قلوبهم وأشرقت نفوسهم على حمل القنوط عنهم هاج الرجاء بذكر سعة الرحمة من الله، فرجاء المحبين تحقيق، وقربانهم الوسائل، فهم لا يسأمون من خدمته، ولا ينزلون في جميع أمورهم إلاَّ عند أمره، لمعرفتهم به أنه قد تكفَّل لهم بحسن النظر، ألم تسمع إلى قول الله ﴿الله لطيف بعباده﴾ فدخلت النعم كلها في اللطف، واللطف ظاهر على محبته خاصة دون الخليقة، وذلك أن الحب إذا ثبت في قلب عبد لم

---

(١) أنظر حلية الأولياء ١٠/٧٣.

يكن فيه فضل لذكر أنس ولا جان ولا جنَّة ولا نار، ولا شيء إلَّا ذكر الحبيب وذكر أياديه وكرمه، وذكر ما دفع عن المحبِّين له من شر المقادير، كما دفع عن إبراهيم الخليل عليه السلام وقد أجَّجت النار وتوعَّده المعاند بلهب الحريق، فأراه جلّ وعزّ آثار القدرة في مقامه، ونصرته لمن قصده، ولا يريد به بدلاً. وذكر ما وعد أولياؤه من زيارتهم إيَّاه وكشف الحجب لهم، وأنهم لا يحزنهم الفزع الأكبر في يوم فزعهم إلى معونته على شدائد الأخطار، والوقوف بين الجنَّة والنار.

١٢ ـ قوله في تقوى الله:

قال عبد الله الحارث بن أسد بن عبد الله المحاسبي رحمه الله: روى عن بعض الحكماء أنه قال: أوصيك ونفسي ومن سمع كلامي، بتقوى الله الذي خلق العباد، وإليه المعاد، وبه السّداد والرشاد. فاتّقِه، يا أخي تقوى من قد عرف قُربَ الله منه، وقدرته عليه.

وآمِنْ به إيمان مَنْ قَد أقرَّ له بالَوحْدانية والفَرْدانية والأزَليّة والأَبديّة، لما ظهر من مُشاهدة مَلَكوته، وشواهد سلطانه، وكثرة الدلائل عليه، والآيات التي تدل على ربوبيته، ونفاذ مشيئته وإحكام صنعته، وبيان قدرته على جميع خلقه، وحسن تبريره، إلّه الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين.

وثق به يا أخي: ثقة من قد حسن ظنه به، وقلَّت تُهمته له،

وصدَّق بوعده، ووثق بضمانه، وسكن قلبُه عن الاضطراب إلى وعده وعظم وعيده في قلبه.

واشكره يا أخي شكر من قد عرف فضله، وكثرةَ أياديه[1] عنده، وبرّه به، ويعرف نعمه الظاهرة منها والباطنة، الخاصة منها والعامة.

وأخلِصْ له إخلاص من قد عرف أنه لا يقبل له عملاً إلَّا بعد تخليصه من الآفات، وإخلاصه لله لا شريك له؛ ولا يشرك في عمله أحَداً سواه. واعلم يا أخي: أن إشراك المخلوقين في العمل: أن يتزيَّن لهم العبد في مواطن الامتحان، فيكذب في عمله، او يرائي ليكرمَ ويُعظم لجميل قوله، ومحاسن ما يظهر من عمله، وهو يعرف ذلك من نفسه، أو يجهله منها.

لا ينجو من ذلك ولا يسلم يا أخي من شرّه إلَّا من هرب من مواطنه، ويعمل ولا يحب أن يطلع له مخلوق على عمل، وإن اطلع له مخلوق على عمل ـ وهو لا يحب اطلاعه ـ فمن صدقة: أن يجب أن يحمده ذلك المخلوق على ما اطلع عليه من عمله. وإن حمده وهو لا يحب حمده فلا يسرّ بحمده على عمله، فإن

(١) أي تعدد أفضاله ونعمه التي لا تحصى ومن التنزيل العزيز ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾.

سرَّه فلا يُسرَّنَّ لمعنى دنيوي بسبب من الأسباب[1].

ثم اصدق يا أخي في قولك وفعلك صدق من قد عرف أن الله مطلع على دخيلة أمره، وسرّه وعلانيته، وما طوى عليه ضميره[2].

وتوكَّل عليه يا أخي: توكل من قد وثق بوعده، واطمأن إلى ضمانه ثقة منه بوفائه، ورضا منه بقضائه، واستسلاماً منه لأمره، وإيماناً بقدره ويقيناً صادقاً منه بجنّته وناره.

وخَفْهُ يا أخي: خوف من قد عرف سطوته، وشدة نقمته، وأليم عذابه، ومُثلته[3] وآثاره ووقائعه لمن خالف أمره وعصاه.

وتعرف يا أخي: أن لا تمسك لأحد خذلة، ولا صنيعة على أحد وفقه وسدده، وحاطه وحفظه، وأن لا صبر لأحد على عقوبته ونكاله، وتغيّر نعمه.

وارْجُه: يا أخي: رجاء من صدَّق بوعده وعاين ثوابه. واشكره

(١) من آفات النفس أن تسرَ حينما تُحمد على عمل من أعمالها، والمحاسبي يبيِّن لنا هنا كيف السلامة من إشراك المخلوقين في العمل، كما تناول ذلك في كتابه «النصائح الدينية» وقد كان للمحاسبي أثر كبير فيمن جاؤوا بعده من العلماء والمفكرين.

(٢) الصدق فضيلة نبيلة، والمحاسبي يحثنا عليها، وما أحوجنا لها، والصدق إما

(٢) أن يكون مع الله تعالى بالتوبة إليه، أو مع الناس، أو مع النفس، وهو يهدي إلى البرّ، والبرّ يهدي إلى الجنّة.

(٣) المثلة: العقوبة الفاضحة يتمثل بها، والجمع مثلات، ومن التنزيل العزيز: [وقد خلت من قبلهم المثلات].

يا أخي: شكر من قد قبل منه محاسنه؛ وأصلح عمله، وحباه من مزيد أياديه، وجزيل ثوابه ما لم يستأهله بعمله.

واستحيه يا أخي حياء من قد تعرف كثرة تفضله، وجزيل مواهبه وعرف من نفسه التقصير في شكره، وقلة الوفاء منه بعهده، والعجز عن القيام بأداء [ما][1] لزمه من حقه، ثم لا يتعرَّف من خالقه إلاَّ جميل ستره، وعظيم العافية، وتتابع النعم، ودوام الإحسان إليه، وعظيم الحلم والصفح عنه.

ثم اعلم يا أخي أن الله ـ جلَّ ذكره ـ قد افترض فرائض ظاهرة وباطنة[2]، وشرع لك شرائع دلَّك عليها، رحمة منه لك، وأمرك بها، ووعدك على حسن أدائها جزيل الثواب، وأوعدك[3] على تضييعها أليم العقاب، رحمة لك، وحذَّرك نفسه شفقة منه عليك.

فقم يا أخي بفرائضه، والزمْ شرائعه، ووافِقْ سنّة نبيه ـ ﷺ ـ واتّبع آثار أصحاب نبيه، والزَمْ سيرتهم، وتأدَّب بآدابهم واسلك طريقهم، واهتد بهداهم، وتوصّل إلى الله بحبهم وحب من

(١) المحاسبي يشير إلى فضيلة الحياء من الله، وأن على العبد أن يستحي من الله حياء من عجز عن آداء ما افترضه عليه من الفرائض.
(٢) الفرائض الظاهرة مثل الصلاة والصيام والزكاة والحج، أما الفرائض الباطنة مثل: تصحيح السرائر، واستقامة الإرادة، وصدق النية، ونقاء الضمير من كل ما يكره الله، وعقد الندم على جميع ما مضى من التوثب بالقلب والجوارح على ما نهى الله عنه.
(٣) غالباً ما تستعمل وعد في الخير، وأوعد في الشر.

أحبّهم فهم الذين أنابوا إليه، وقصدوا قصده، واختارهم لصحبة نبيه، فجعلهم له أحباباً وإخواناً.

١٣ ـ علامة حب أصحاب النبي وحب من أحبَّهم:

واعلم يا أخي: أن علامة حبك إياهم: لزومك محَجَّتهم، مع استقامة قلبك، وصحة عملك، وصدق لسانك، وحسن سريرتك لأمر دنياك وآخرتك؛ كما كان القوم في هذه الأحوال كلها؛ فهذا بحق منك، صدق دعواك لحبهم، والتمسك بسنَّتهم، فإذا أصبحت فيك ومنك هذه الخلال كصحتها منهم وفيهم، كنت صادقاً في حب القوم، وحسن الاتباع لهم.

وإن كنت مدعياً لحبهم، وأنت مخالف لأفاعيلهم، عدل عن سبيل الاستقامة لطريق المحَجَّة[١] التي كانوا عليها، فأنت مائل إلى موافقة هواك؛ عادل عن مسيرتهم، ولست بصادق في دعواك، فلا تجمعن على نفسك الخلاف لمحجّتهم، والدعوى أنك على سبيلهم، فمتى فعلت ذلك صحَّ منك جَهْلٌ وكذب، وتعرَّضت للمقت من اللطيف الخبير. ولكن إقراراً واستغفاراً، فذاك أولى وأشبه بمن كانت هذه صفته في معرفة الحق، وليكن لك يا أخي من الحق نصيب، فإنه قد قيل: «ليأتين على الناس زمان يكون المقرّ فيه بالحق ناجياً»[٢].

(١) المحجة: السنّة والطريقة التي يسيرون عليها ويتمسكون بها.

(٢) سئل النبي ﷺ عن الفرقة الناجية فقال: «ما أنا عليه وأصحابي» رواه أبو داود، والحاكم في المستدرك.

١٤ ـ معرفة النفس وتفقد أحوالها:

فإذا أنت عرفت الحق، فأقررت به، ودلَّك الحق على أن لله عليه مع الفرائض الظاهرة فرضاً باطناً، وهو: تصحيح السراير، واستقامة الإرادة، وصدق النية، ومفانشة الهمة؛ ونقاء الضمير من كل ما يكره الله، وعقد الندم على جميع ما مضى من التوثب بالقلوب والجوارح على ما نهى الله عنه. وهـذا أمر جعله الله مهيمناً على أعمال الجوارح، فما كان من أعمال العبد من عمل ظاهر قوبل به من الباطن فما صح ووافق باطنه صلح، وقبل ظاهره، وما خالف وفسد باطنه، ردت عليه أعمال ظاهره وإن كثرت، وخسر ظاهرها لفساد باطنها، ويحقق ذلك كله قول الله تعالى:

﴿وذرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إنَّ الَّذين يكْسبُون الإثْمَ سَيُجْزون بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾[١].

وقول النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيَّات، وإنما لكل امرىء ما نوى»[٢].

---

(١) الأنعام: ١٢٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه بطوله، عن عمر بن الخطاب، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي (١/ ١٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة حديث رقم (١٥٥)، وأبو داود في سننه، كتاب الطلاق، باب الكلام إذا قصد به فيما يحتمل معناه (٦/ ١٥٨)، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب النيّة، حديث رقم (٤٢٢٧)، وأحمد في السند (١/ ٢٥)، (٣/ ٦٠).

وقوله: «في ابن آدم مضغة؛ إذا صلحت صلح سائر جسده، وإذا فسدت فسد سائر جسده ـ يريد عمله ـ ألا وهي القلب»[1].

وقوله: «إن الملكِ ليُكَثِّر أعمال العبد بعد وفاته عند الله تعالى، فيقول: «عبدك لم أزل معه حتى توفيته، ثم يذكر محاسن عمله فيكثره ويطيّبها، ويحسن الثناء عليه، فيقول الله تعالى: إنك كنت حفيظاً على عمل عبدي، وأنا كنت رقيباً على قلبه، وإن عمله الذي كَثَّرته وطَيَّبته لم يكن لي خالصاً، ولست أقبل من عبد من عبيدي إلَّا ما كان لي خالصاً»[2].

فاعرف يا أخي نفسك، وتفقَّد أحوالها، وابحث عن عقد ضميرها بعناية منك وشفقة منك عليها، مخافة تلفها، فليس لك نفس غيرها فإن هلكت فهي الطامة الكبرى، والداهية العظمى. فأحدَّ النظر إليها يا أخي بعين نافذة البصر، مديدة النظر، حتى تعرف آفات أعمالها، وفساد ضميرها، وتعرف ما يتحرَّك به لسانها، ثم خذه؛ فإن هواها ذاك معها، فاكبحها بحكمة الخوف، وصدق الخلاف عليها، ورُدَّها بجميل الرفق إلى مراجعة الإخلاص في عملها، وتصحيح الإرادة في ضميرها،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، عن النعمان بن بشير، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه (١/١٥٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، حديث رقم (١٠٧)، وابن ماجة في سننه، كتاب الفتن، باب الوقوف عند الشبهات، حديث رقم (٣٩٨٤)، والدارمي في سننه، كتاب البيوع، باب في الحلال بين والحرام بين (٢/٢٤٥).

(٢) ذكره الغزالي في الإحياء من حديث طويل (٤/١٨٦٩، ١٨٧٠).

وصدق المنطق في لفظها واستقامة النية في قلبها، وغض البصر عمّا كره مولاها، مع ترك فضول النظر إلى ما قد أبيح النظر إليه، مما يجلب على القلب اعتقاد حب الدنيا. وخذها بالصمم عن استماع شيء مما كره الله من الهوى والخنا[1]، وفي تناولها وقبضها، وبسطها، وفي فرحها وحزنها، وخذها بتصحيح ما يصل إلى بطنها من غذائها، وما تستر به عورتها، وخذها بجميع هممها كلها، وامنع فرحها عن جميع ما كره مولاها. وليكن مع ذلك منك تيقُّظ، وإزالة الغفلات من قلبك، عند كل حركة تكون منك وسيكون وعند الصمت والمنطق، والمدخل والمخرج، والمنشط، والحب والبغض، والضحك والبكاء.

فعاهدها يا أخي في ذلك كله، فإن لها في كل نوع ذكرناه من ذلك كله سبب لهواها وسبب لطاعتها وسبب لمعصيتها. فإن غفلت ووافقت هواها وغافلت عن مفاتشة هممها، كان جميع ما ذكرت لك من ذلك كله معاصٍ منها. وإن أنت سقطت بالغفلة، ورجعت بالتيقظ إلى خلاف هواها فكان معك الندم على غفلتك وسقطتك، رجع ذلك كله إحساناً وطاعات لك.

فتفقّدها يا أخي بالعناية المتحرِّكة منك لها، مخافة تلفها فإنك تقطع عن إبليس طريق المعاصي، وتفتح على نفسك الخير، وما التوفيق إلاَّ بالله العظيم.

---

(١) خنا: أفحش في منطقة، والخنا هو: الفحش في القول.

١٥ ـ اللسان أعظم الجوارح جناية :

واتهم يا أخي نفسك أشدّ من تهمتك أعدى عدو لك. وخف يا أخي من لسانك أشدّ من خوفك من السبع الضاري، القريب المتمكن من أخذك، فإن قتيل السبع من أهل الإيمان ثوابه الجنة، وقتيل اللسان عقوبته النار، إلاَّ أن يعفو الله. فإيَّاك يا أخي والغفلة عن اللسان، فإنه سبع ضار، وأول فريسته صاحبه.

فاغلق باب الكلام من نفسك بغلق وثيق، ثم لا تفتحه إلاَّ فيما لا بد لك منه، فإذا فتحته فاحذر، وخذ من الكلام حاجتك التي لا بد لك منها وأغلق الباب. وإياك والغفلة عن ذلك، والتمادي في الحديث، وأن يشتد بك الكلام فتهلك نفسك. فإنه يروى عن النبي ﷺ أنه قال لمعاذ بن جبل: «وهل يكب الناس على مناخرهم في جهنم إلاَّ حصائد ألسنتهم»[١]؟ وسأله رجل فقال: ما أتقي؟ فقال: «هذا»، يعني: لسانه[٢]. وقال له رجل: ما أخوف ما تخاف عليَّ؟ فقال: «هذا»، وأخذ رسول الله ﷺ بطرف لسان نفسه»[٣].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند، عن معاذ بن جبل، (٥/٢٣١، ٢٣٧)، والترمذي في صحيحه وقال: حديث حسن صحيح (١٠/٨٨)، وابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، حديث (٣٩٧٣)، والحاكم في مستدركه، كتاب الأدب، وقال: هذا حديث صحيح (٤/٢٨٧).

(٢) أخرجه أحمد في المسند، عن عبد الله بن سفيان (٣/٤١٣)، والدارمى في سننه، كتاب الرقاق، باب في حفظ اللسان (٢/٢٩٨).

(٣) أخرجه الترمذي في صحيحه وقال، حديث حسن صحيح (٩/٢٤٩)، كتاب=

وقال له آخر: ما النجاة؟ فقال: «أمسك عليك لسانك؟ وليسعك بيتك، وابكِ على خطيئتك»[1].

وقال ﷺ: «من صمت نجا»[2]. وقال: «من سرّه أن يسلم فليلزم الصمت»[3].

وورد عمر على أبي بكر ـ رحمهما الله ـ وهو آخذ بلسانه يصبصه فقال له عمر: ما تصنع؟ فقال: «هذا أوردني الموارد»[4]. وقال ابن مسعود: «ليس شيء أحق بطول سجن من لسان»[5]. وقال «لساني سبع أخاف أن أسلِّمه أكلي».

= الدارمي في سننه عن سفيان بن عبد الله، كتاب الرفاق، باب في حفظ اللسان (٢/٢٩٨) وابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب كفّ اللسان في الفتنة، حديث رقم (٣٩٧٢).

(١) أخرجه أحمد في المسند، عن عقبة بن عامر (٤/١٤٨، ٥٨، ١٥٩، ٥/٢٥٩)، والترمذي في صحيحه، وقال: حديث حسن (٩/٢٤٧)، والطبراني في الأوسط، انظر مجمع الزوائد للهيثمى (١٠/٢٩٩).

(٢) أخرجه أحمد في المسند، عن عبد الله بن عمرو (٢/١٥٩/١٧٧)، والترمذي في صحيحه، وقال: حديث غريب (٩/٣٠٩)، والدارمى في سننه، عن عمرو بن العاص، كتاب الرقائق، باب في حفظ اللسان (٢/٢٩٩).

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط، وأبو يعلى، عن أنس بن مالك، انظر مجمع الزوائد للهيثمي (١٠/٢٩٧)، وابن أبي الدنيا في الصمت، حديث رقم (١١).

(٤) أخرجه أحمد في الزهد عن زيد بن أسلم ص (١١٢)، وأبو يعلى، انظر مجمع الزوائد للهيثمي (١٠/٣٠٢)، وابن أبي الدنيا في الصمت، حديث رقم (١٣).

(٥) أخرجه ابن حيان في صحيحه (١/١٣٤)، وابن أبي الدنيا في الصمت، حديث رقم (٢٣)، والطبراني، انظر مجمع الزوائد (١٠/٣٠٣).

مع أخبار كثيرة في اللسان فإياك يا أخي والغفلة عنه، فإنه أعظم جوارحك عليك جناية، وأكثر ما تجد في صحيفتك يوم القيامة من الشرّ ما أملاه لسانك، وأكثر ما تجد من الخير في صحيفتك ما اكتسبه قلبك.

١٦ ـ أعمال القلوب:

وذلك أن اكتساب قلوب الحكماء وأهل البصائر للخير أعمال خفية تخفى على إبليس، وعلى الحفظة، فهي أعمال نقية من الفساد وزكية، قد حصلت مع خفّة مؤنة على أهلها جزيلة الثواب، مخلصات من عوارض العدو ومن هوى الأنفس، وذلك لأنها أعمال مستورة عن أعين العباد خاملة، وذلك أن العبد يصل إليها قائماً وقاعداً ومضطجعاً، فأولئك هم أولو الألباب، ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ الله قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾[1]، وأكثر ذكرهم التفكير، وقال تعالى: ﴿وَيَتفكَّرونَ في خَلْقِ السَمَوَاتِ الأَرضِ﴾[2]. فهم أهل الإخمال من المؤمنين الذين عبدوا الله عبادة لم تظهر منهم.

وتعاهد يا أخي قلبك بأسباب الآخرة، وعرّضه لذلك وصُنْه من أسباب الدنيا، ومن ذكر يجر إلى الحرص والرغبة. ولا تأذن لقلبك من استصحاب يعسر طلبه ويُطْفَأُ نور القلب من أجله، وكن في تأليف ما بينه وبين محمود العاقبة حريصاً، وخوّف

(١) (٢) آل عمران: ١٩١.

نفسك عقوبة ما في يديك من الدنيا، وقلّة أدائك لما يجب عليك فيه من الشكر، واستكثر ما في يديك، لما تعلم من ضعف شكرك، حتى تشغل النفس بما في يديها عن الفكر في أمر الدنيا، والمحبة للزيادة منها، فإذا أجممتها[1] من ذكر الزيادة من الدنيا، وحملتها على درجة الخوف مما في يديها، وقنعت ورضيت وعفّت عن طلب الدنيا بالحرص والرغبة، ورجعت إلى الآخرة بالحرص عليها، والرغبة فيها، فإن النفس مبنية على أساس الطمع، ومخرج الحرص، والرغبة من الطمع وبناء الأنفس على قواعد الطمع.

١٧ ـ الطمع في الدنيا وفي الآخرة:

أما الطمع في الدنيا فيستعمل أداة طمع في طلب الزيادة من الدنيا. وأما الطمع في الآخرة فيستعمل أداة الطمع في طلب الزيادة من أعمال الآخرة بالحرص عليها، والرغبة فيها.

قيل لحكيم: فما آلة الطمع، وجُمّاع آفاته؟ قال: الشره والحِرْص، وهيجان الرغبة، فعلى أيّهَا أوقفت النفس طمعها أحضرت أداتها، وجمعتِ آلتها، وجدَّت في طلبها. فإذا قهرت صاحبها ـ العبد ـ على موافقةِ هواها اسْتَعْبَدته، فأذْهَلَتْه وأذلَّتْه، وأدهشته وأتعبته، وطيّشَتَ عقله، ودنَّست عرضه، وأخلقت

---

(١) أجممتها: يقال: أجمَ فلان لسانه من الكلام، ويقال: أجم نفسك وأجممتها: أرحتها، أي أرحت النفس من طلب المزيد من الدنيا: ومنه الاستجمام طلب الراحة.

مروءته[1]، وفتنته عن دينه، وإن عالماً لبيباً عاقلاً، كيِّساً، فطيناً حكيماً فقيهاً، لوَّثْته، وأسقطته، وفضحته، فاحتمل لها ذلك كله، وهو الأريب اللبيب العالم الأديب، فصيَّرته بعد العلم جاهْلاً سفيهاً، أحمق خفيفاً، وذلك أنها سَقْتْهُ من موافقة هواها كأساً سُمّاً صْيرفاً، فاستمالته، فمال بعلمه وعقله وفهمه، ونفاذ حكمته وبصره فأجزاه مجرى هوى نفسه، فعجّلَت له الفضيحة في عاجل الدنيا، عند حكمائها وعقلائها، وأسقطته من نعيم الله، وأعين عباده من أهل البصائر، وأخَّرت له أجل الندامة الطويلة عند مفارقة الدنيا، وفي عرصات القيامة.

١٨ ـ علاج النفس من طمعها الدنيوي:

فإذا اقطعِ العبد عليها الطمع من أسباب الدنيا؛ وغلب بعقله هواها رجعت بطمعها إلى منازل الآخرة، وأحضرت أداتها واستعملت آلاتها فاشتغلت بطلب أسباب الآخرة لا محالة، لأنها مبنية على الطمع، فإذا تجرَّدت من طلب أسباب الدنيا، واختملت على نفسها بالإياس من المخلوقين، رجعت برغبتها وطمعها إلى طلب أسباب الآخرة، فجدَّت في طلبها واجتهدت، وعزفت عن الدنيا، وباينت الهوى، وخالفت العدو، وتبعت العلم، وكانت مطية للعقل صابرة على مرَّ ما يدل عليه الحق، فنجت وأنجت في معرفة دواء القلب.

---

(١)، جعلتها بالية كالثوب الخلق.

١٩ ـ تعاهد القلب:

فتعاهد يا أخي قلبك عند هَمِّه، وألزمه الفكرة في أمر المعاد، فلا يفارق قلبك ذلك، وتوّهم بقلبك هول المطلع عند مفارقة الدنيا، وترك ما قد بذل أهلها في مهج أنفسهم، وتدنيس أعراضهم، وإخلاق مروءاتهم وانتقاص أديانهم، ثم تركوا ذلك كله، وقدموا على الله فرادى آحاداً مع ما قد ورد عليهم من وحشة القبر، وسؤال منكر ونكير، وأهوال القيامة، والوقوف بين يدي الله، والمساءلة عن جميع ما كان منهم: من قول أو فعل، من مثل مثاقيل الذَّرِّ، ؛ وموازين الخردل، وسؤاله عن الشباب فيمَ أبلى شبابه؟ وعن العمر فيمَ أفنى عمره؟ وعن المال من أين اكتسب؟ وعمن منع وفيم أنفق؟ وعن العلم ماذا عمل فيه[1]؟ وعن جميع الأعمال التي صدقوا فيها، والتي كذبوا فيها.

فإنك يا أخي إن شغلت قلبك بذلك، وأسكنته إياه، وكان فيك مع ذلك شيء من صحة تركيب العقل، فإنه سيكلُّ منك لسانك ولا يعدمك الخوف اللازم مع الحزن الدائم، والشغل المحيط بقلبك.

(١) أخرج الدارمي في سننه، والطبراني في الكبير، والديلمي في الفردوس، عن معاذ بن جبل، أن النبي ﷺ قال: لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال: عن عمره فيما أفناه.

٢٠ ـ إبليس وفراغ القلب من الخوف اللازم والحزن الدائم:

فإن إبليس إنما يتسوّر عليك في الآثام من وسوسة نفسك، وخراب قلبك. فقلبك إذا كان فارغاً من الخوف اللازم، والحزن الدائم، فحينئذٍ ينفث فيه بالوسوسة لآمال الدنيا، والجمع لها، والطمع فيها، والحرص عليها، والرغبة في الإكثار منها، والادخار والجمع لها، مخافة فقرها مع لزوم طول الأمل لقلبك، وإعراضه عن الله تعالى وانقطاع مواد عظمة الله منه، وفراغه من الهيبة والحياء منه.

٢١ ـ متى يخنس إبليس؟

فإذا وجد القلب عامراً خنس، ونفر منه، ولم يجد فيه مساغاً، ولا من جوانبه مدخلاً، لأن القلب عامر بالخوف والأحزان والفكر، فهو منير مضيء.

يرى العبد بنور قلبه مداخل إبليس، فيرميه بالإنكار لما يدعو إليه، ويعتصم بما أيَّده الله به من نور قلبه فيدحره عنه، فولّى الخبيث إلى قلب قد فقد الخوف، فخرب وأظلم فلا نور فيه. فلا شيء أثقل على الخبيث من النور، ولا سيّما إذا وجده خنس، ونفر منه فلا يقدر عليه من قبل الغفلة من العبد.

٢٢ ـ نور القلب مع تيقظه:

ونور القلب إنما هو مع تيقظه وحياته، فإذا غفل مات وأظلم، وطفىء نوره، فيلبَس على العبد ما يدخله عليه العدو، أو يكرر،

فاختلس إبليس حينئذٍ من العبد، واستدام القلب بالغفلة، فتسوّر عليه بالآثام فإذا أصر على الإقامة عليها ورضي بها، علاه الرَّين[1] فأظلمه واستقرَّ إبليس فيه ثم سلك به في سبيل الآثام على أن يوصله ويوقعه في الكبائر وما شيء أعجب لإبليس من ظلمة القلب وسواده، وانطفاء نوره، وتراكب الرَّين عليه.

ولا شيء أثقل على الخبيث من النور والبياض والنقاء والصفاء، وإنما مأواه في الظلمة، وإلاَّ فلا مأوى له ولا قرار في النور والبياض.

ولقد بلغني أن النبي ﷺ كان يكره أن يدخل البيت المظلم حتى يضاء له فيه مصباح[2].

٢٣ ـ أقوال المحاسبي في الحب الإلَهي:

قال المحاسبي: قيل إن الحب لله هو شدّة الشوق وذلك أن الشوق في نفسه تذكار القلوب بمشاهدة المعشوق، وقد اختلف العلماء في صفة الشوق فقالت فرقة منهم: الشوق انتظار القلب

(١) الرَّين: الصدأ لأنه يعلو المرآة أو السيف وران عليه أي غلب عليه، وفي التنزيل العزيز: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ أي أن كسبهم غلب على قلوبهم فصدئت وطبع عليها.

(٢) أخرجه البزار في الزوائد، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان رسول الله ﷺ، لا يجلس في بيت مظلم إلاَّ أن يسرج له فيه سراج، انظر الزوائد للبزار، كتاب الأدب، باب الجلوس في الظلمة (٢/٤٢٤)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/٦٠، ٦١) وقال: رواه البزار، وفيه جابر بن يزيد الجعفي وهو متروك.

دولة الاجتماع. وقال: سألت رجلاً لقيته في مجلس الوليد بن شجاع يوماً عن الشوق متى يصلح لمن ادّعاه؟ فقال: إذا كان لحالته صائناً مشفقاً عليها من آفات الأيام، وسوء دواعي النفس، وقد صدق العالم في قوله، وذلك أن المشتاقين لولا أنهم ألزموا أنفسهم التهم والمذلة لسلبوا عذوبات الفوائد التي ترد من الله على قلوب مُحبّيه. قالت: فما الشوق عندك؟ قال: الشوق عندي سراج نور من نور المحبة غير أنه زائد على نور المحبة الأصلية. قلت: وما المحبة الأصلية؟ قال: حب الإيمان وذلك أن الله تعالى قد شهد للمؤمنين بالحب له، فقال: «والذين آمنوا أشد حباً لله»[1] فنور الشوق من نور الحب وزيادته من حب الوداد، وإنما يهيج الشوق في القلب من نور الوداد فإذا أسرج الله ذلك السراج في قلب عبد من عباده لم يتوهَّج في فجاج القلب إلاَّ استضاء به، وليس يطفىء ذلك السراج إلاَّ النظر إلى الأعمال بعين الأمان، فإذا أمن على العمل من عدوه لم يجد لإظهاره وحشة السلب فيحل العجب وتشرد النفس مع الدعوى وتحل العقوبات من المولى وحقيق على من أودعه الله وديعة من حبه فدفع عنان نفسه إلى سلطان الأمان يسرع به السلب إلى الافتقاد؛ وقالت امرأة من العوابد: والله لو وهب الله لأهل الشوق إلى لقائه حالة لو فقدوها لسلبوا النعيم. قيل لها: وما تلك الحالة؟ قالت: استقلال الكثير من أنفسهم ويعجبون منها كيف

(١) البقرة، آية: ١٦٥.

صارت مأوى لتلك الفوائد هي، وقيل لبعض العباد أخبرنا عن شوقك إلى ربك ما وزنه في قلبك؟ فقال العابد للسائل: لمثلي يقال هذا لا يمكن أن يوزن في القلب شيء إلاَّ بحضرة النفس وإن النفس إذا حضرت امراً في القلب من ميراث القربة قذفت فيه أسباب الكدورات، وقيل لمضر القارىء: الخوف أولى بالحب أم الشوق؟ فقال: هذه مسألة لا أجيب فيها، ما اطلعت النفس على شيء قط إلاَّ أفسدته وأنشدني عبد العزيز بن عبد الله في ذلك يقول:

الخوف أولى بالمسي ... إذا تاله والحزن
والحب يحسن بالمطيع ... وبالتقي من الدرن
والشوق للنجباء والأبدا ... ل عند ذوي الفطن

فلذلك قيل الحب هو الشوق لأنك لا تشتاق إلاَّ إلى حبيب، فلا فرق بين الحب والشوق إذا كان الشوق فرعاً من فروع الحب الأصلي، وقيل إن الحب يعرف بشواهده على أبدان المحبين وفي ألفاظهم، وكثرة الفوائد عندهم الدوام الاتصال بحبيبهم، فإذا واصلهم الله أفادهم فإذا ظهرت الفوائد عرفوا بالحب لله ليس للحب شبح ماثل ولا صورة فيعرف بجبلته وصورته، وإنما يعرف المحب بأخلاقه وكثرة الفوائد التي يجريها الله على لسانه بحسن الدلالة عليه، وما يوحى إلى قلبه، فكلما ثبتت أصول الفوائد في قلبه نطق اللسان بفروعها، فالفوائد من الله واصلة إلى قلوب محبيه فأبين شواهد المحبة لله شدة النحول بدوام الفكر

وطول السهر بسخاء الأنفس على الأنفس بالطاعة وشدة المبادرة خوف المعالجة والنطق بالمحبة على قدر نور الفائدة، فلذلك قيل إن علامة الحب لله حلول الفوائد من الله بقلوب من اختصه الله بمحبته وأنشد بعض العلماء.

له خصائص يكلفون بحبه اختارهم في سالف الأزمان
اختارهم من قبل فطرة خلقهم بودائع وفوائد وبيان

فالحب لله في نفسه استنار القلب بالفرح واستلذ الخلوة بذكر حبيبه، فالحب هائج غالب والخوف لقلبه لازم لا هائج إلاَّ أنه قد ماتت فيه شهوة كل معصية وهدى لأركان شدة الخوف وحل الأنس بقلبه لله فعلامة الأنس استثقال كل أحد سوى الله، فإذا ألف الخلوة بمناجاته حبيبه (استغرقت حلاوة المناجاة العقل كله حتى لا يقدر أن يعقل الدنيا وما فيها، ومن ذلك قول ضيغم العابد: عجباً للخليقة كيف استنارت قلوبهم بذكر غيرك؟ وحدثني أبو محمد قال: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود إن محبتي في خلقي أن يكونوا روحانيّين وللروحانية علم هو أن لا يغتموا وأنا مصباح قلوبهم. يا داود لا تمزج الغم قلبك فينقص ميراث حلاوة الروحانيين. يا داود هممت للخبز أن تأكله وأنت تريدني وتزعم أنك منقطع إليّ، تدعي محبتي وأنك قد أحببتني وأنت تسيء الظن بي أما كان لك علم فيما بيني وبينك أن كشفت لك الغطاء عن سبع أرضين حتى أريتك دودة في فيها بِرة تحت سبع أرضين، حتى تهتم بالرزق. يا داود أقر لي

بالعبودية أبحك ثواب العبودية وهو محبتي. يا داود تواضع لمن تعلمه ولا تطاول على المريدين فلو يعلم أهل محبتي ما قدر المريدين عندي لكانوا للمريدين أرضاً يمشون عليها، وللحسوا أقدامهم. يا داود إذا رأيت لي طالباً فكن له خادماً واصبر على المؤونة تأتك المعونة. يا داود لأن يخرج على يديك عبد ممن أسكره حب الدنيا حتى تستنقذه من سكرة ما هو فيه سميتك عندي جهبذا، ومن كان جهبذا لم تكن به فاقة ولا وحشة إلى أحد من خلقي. يا داود من لقيني وهو يحبني أدخلته جنّتي.

٢٤ - في محاسبة النفس، ودفع الهوى من ضمائر القلوب:

قلت: رحمك الله، ما معنى المحاسبة؟

قال: قيام العقل على حراسة النفوس من خيانتها، لتتفقّد منها زيادتها من نقصانها.

قلت: زدني في شرح البيان في المحاسبة أجلي من هذا.

قال: تقدم بين يدي كل فعل تفعله: لم؟ ولمن؟ فإن كان لله مضيت فيه، وإن كان لغير الله امتنعت عنه، ولمت نفسك على إشارتها إلى روح دواعي الهوى، وعاقبتها على ذلك، وأثبت عليها جهلها، وبيّنت عند العقل فضيحتها، وعرفت أنها عدوة لك، لسوء فعلها، وما دعتك إلى ما يقطعك عن خالقها.

قلت: فمن أين مخرج المحاسبة؟

قال: من مخاوف النقص، وشين البخس، والرغبة في زيادة الأرباح، لأن الشريك إنما يحاسب شريكه مخافة البخس

والخسران، وأمل رجاء كثرة الأرباح، وكثرة زيادة البضاعة كما قال ذو النون لبعض العابدات: (بِمَ تجدين الزيادة؟ قالت: بالتفقد والمحاسبة).

قلت: فما معنى قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا)؟.

قال: يزنها وزن من لا يدعها تميل إلى الباطل وزن مثقال ذرة.

قلت: فما ميراث المحاسبة[١]؟

قال: زيادة في البصيرة، وكيس في الفطنة، وسرعة إلى إثبات الحجة، واتساع في المعرفة، وهذا على قدر لزوم القلب للتفتيش.

قلت: بأي شيء يقوى العبد على محاسبة نفسه؟

قال: بثلاث خصال:

أولاها: قطع العلائق التي تشغله عن جمع الهم على المحاسبة[٢]، لأن من أراد أن يحاسب غريمه فرغ قلبه من الأشغال.

---

(١) اشتهر المحاسبي بالمحاسبة علماً وسلوكاً، ولذلك سُمِّي بالمحاسبي. وله في كل كتاب من كتبه حديث عنها، وقد جمع أبو نعيم الأصبهاني قدراً كبيراً من أقواله في المحاسبة.

(٢) لا يتشتت هم الإنسان عن المحاسبة إلَّا الاسترسال بالخيال أو بالعمل في الشهوات والفكر فيها وفي وسائلها، أما إذا قطع الإنسان على نفسه الخيال فيها فإنها تستجيب لأول منازل المحاسبة. ثم يفرغ نفسه وقلبه من الاشتغال بعمل الدنيا في المكاسب وغيرها ويفرغ تماماً للمحاسبة.

والثانية: التفرُّد لها عن غيرها اختياراً منه، لخوف الفوت لما أمل من المحاسبة.

والثالثة: الخوف من الله عزّ وجلّ أن يسائله عما فرط فيما يلغه على لسان نبيه عليه السلام حيث قال: (للمؤمن أن يرى في أربع ساعات: ساعة يحاسب فيها نفسه)(١). الحديث.

قلت: لِمَ تخلّفت القلوب عن محاسبة النفس؟

قال: من غلبة الهوى والشهوة، لأنهما ضد النظر والعلم والبيان، فمن ثم تخلفت عن محاسبة النفوس، وعميت عن النظر، فلا ترى النفس جميلاً ترغب فيه ولا قبيحاً تأنف عنه.

قلت: رحمك الله، أخبرني عن الهوى الذي حجبها عن المحاسبة.

قال: الهوى هو: تعلق النفوس بالشهوات، وميلها إلى الراحات. فعلى قدر الشهوات يتمكن منها الضعف، فيستولي عليها الهوى(٢).

قلت: كيف أعاقب نفسي على ما جنت؟

قال: تفرق بينها وبين محابها، وتأخذ سوط الخشية لها بدوام الرعاية لها في سعيها، وتضاعف عليها أورادها، وتزيد في

---

(١) حديث (للمؤمن أن يرى). أخرجه أبو يعلى والبزار عن أبي هريرة.

(٢) الفرق بين الشهوة والهوى، أن الشهوة حال من أحوال النفس، والهوى مقام من مقاماتها المرذولة. فالشهوة عارضة. فإذا استحكمت صارت هوى. والهوى ملكة ثابتة وسلوك راسخ يجمع شهوة أو شهوات كثيرة يصعب الإقلاع عنها، بعكس الشهوة العارضة.

كذّها، وتنقصّ من غذائها، وتقطعها عن ملاذها، وتجرعها غيظ التهديد زجراً لها، حتى يغلب سلطان رعـايتك سلطان كبـرها فعند ذلك يا فتى تذلّ في نفسها، وتخضع بعد كبرها، وتسقط عن كلبها[1] وشرها، وتمرّ على الاستقامة إلى خالقها، ومن الله التوفيق.

٢٥ ـ مخاوف العبد!

قال المحاسبي: العبد بين تسع مخاوف:

فأولها: أن يخاف ويدعو الله، ويتضرَّع إليه: ألَّا يكلِّمهُ إلى حسناته التي يتعزّز بها من عباد الرحمن ظلماً وعدواناً.

والثانية: أن يخاف من كفران نعم الله التي قـد غلب عليه البطر[2] بها فأشغله عن الشكر عليها.

والثالثة: خوف الاستدراج بالنعم وتواترها.

والرابعة: خوف الله أن يبدو له عزاً من الله ما لم يكن يحتسب في طاعاته التي يرجو ثوابها، ولم يعدها من ذنوبه.

والخامسة: الذنوب التي عملها واستيقن بها فيما بينه وبين الله.

والسادسة: تبعات الناس قبله.

---

(١) الكلب: بفتح الكاف واللام: السعار والشراهة.

(٢) بطر النعمة استخفها فكفرها. وفي التنزيل العزيز ﴿وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها﴾. وبطر الحق: أنكره ولم يقبله.

والسابعة: أنه لا يدري ما يحدث له في بقية عمره[1].

والثامنة: أن يخاف تعجيل العقوبة في الدنيا، والنكال فيها قبل الموت.

والتاسعة: الخوف من علم الله تعالى فيه، وفي أي الدارين أثبت اسمه من أم الكتاب. فاحذر الذنوب فإن شؤمها قريب، وظلمتها شديدة، واحذر الحسنات التي تباعدك من طريق الصالحين، فما أقرب القارىء المتعبِّد بغير معرفة إلى أن يتكبر على عباد الله عزّ وجلّ، ويمنّ على الله سبحانه وتعالى بالحسنات التي لو وكله إليها كان فيها هلاكه، وما أقربه من أن يطلب الناس بما أراده الله منهم من الطاعة له عزّ وجلّ، والإجلال والإعظام، والقدر العظيم. ولا يؤمن على القارىء غير الفقيه أن يسىء إليهم ويطلب منهم الإقرار بالإحسان، ويعطيهم من نفسه ما أراده الله منه. إن الله تعالى أراد منه: أن يتزيَّن له، ويتعبَّد له، ويخلص له العمل وحده، فأعطى هو للمخلوقين ذلك من نفسه.

أقوال المحاسبي في صدق المحبين:

عن عبد الله بن ميمون قال: سمعت الحارث بن أسد المحاسبي يقول: علامة أهل الصدق من المحبين غاية أملهم

(١) الخوف هنا مما سيحدث للعبد في بقية عمره وفي الحديث الذي أخرجه ابن المبارك برقم (٨٠٨) «المؤمن بين مخافتين من ذنب قد مضى لا يدري ما يصنع الله فيه ومن عمر قد بقي لا يدري ماذا يصيب فيه من الهلكات».

في الدنيا أن تصبر أبدانهم على الدون وأن تخلص لهم النيات من فسادها، ومنهم من يريد في الدنيا شواهد الكرامات عند سرعة الإجابة وغاية أملهم في الآخرة أن ينعمهم بنظره إليهم، فنعيمها الأسفار وكشف الحجاب حتى لا يمارون في رؤيته، والله ليفعلن ذلك بهم إذا استزارهم إليه. قال أبو نعيم: وحدثني بعض العلماء قال: أوحى الله تعالى إلى نبي من الأنبياء عليهم السلام: بعيني ما يتحمَّل المتحملون من أجلي، وما يكابد المكابدون في طلب مرضاتي، فكيف إذا صاروا إلى جواري واستزرتهم للمقعد عندي، أسفرت لهم عن وجهي، فهنالك فليبشر المصفّون للرحمن أعمالهم بالنظر العجيب من الحبيب القريب أتراني أنسى لهم عملاً؟ كيف وأنا ذو الفضل العظيم، أجود على المولين عني فكيف بالمقبلين عليَّ وما غضبت على شيء كغضبي على من أخطأ خطيئة ثم استعظمها في جنب عفوي ولو عاجلت أحداً بالعقوبة لعاجلت القانطين من رحمتي ولو يراني عبادي كيف أستوهبهم ممن اعتدوا عليهم بالظلم في دار الدنيا ثم أوجبت لمن وهبهم النعيم المقيم لما اتهموا فضلي وكرمي، ولو أشكر عبادي إلاَّ على خوفهم من المقام بين يدي لشكرتهم على ذلك، ولو يراني عبادي كيف أرفع قصوراً تحار فيها الأبصار، فيقال لمن هذه فأقول لمن عصاني، ولم يقطع رجاء مني فأنا الديَّان الذي لا تحل معصيتي، ولا حاجة بي إلى هوان من خاف مقامي. وقال المحاسبي: وحدثني بعض إخواني ممن يوثق به قال: عاتب الحسن إخوانه في ترك مجالستهم فقال

الحسن: مجالسة الله أشهى من مجالستكم وذكر الله أشفى من ذكركم، أما بلغكم ما أوحى الله تعالى إلى إبراهيم عليه السلام يا إبراهيم إنك خليلي فانظر لا أطلع عليك فأجدك شغلت قلبك بغيري فإني إنما أختار لخلقي من لو ألقى في النار وهو في ذكرى لم يجد لمس النار ألماً، ومن إذا تراءت له الجنّة وقد زخرفت وزينت بحورها وما فيها من النعيم لم يرها بعينه ولا شغل بها عن ذكري، فإذا كان كذلك تواترت عليه ألطافي وقرَّبته مني ووهبت له محبتي، ومن وهب له محبتي فقد استمسك بحبلي. فأي نعمة تعدل ذلك وأي شرف أشرف منه؟ فوَعزّتي لأرينه وجهي، ولأشفين صدره من النظر إليّ. وقال إبراهيم بن أدهم: لو علم الناس لذة حب الله لقلّت مطامعهم ومشاربهم وحرصهم وذلك أن الملائكة أحبُّوا الله فاستغنوا بذكره عن غيره. وقال المحاسبي: سمعت محمّد بن الحسين يقول قال عتبة الغلام: من عرف الله أحبه: ومن أحب الله أطاعه ومن أطاع الله أكرمه، ومن أكرمه أسكنه في جواره، ومن أسكنه في جواره فطوبى له طوبى له، والمحب الصادق إذا استنار قلبه بنور حب الوداد نحل جسمه، لأن قليل المحبة يبين على صاحبها كثير النحول، فإذا وردت خطرات الشوق عليه علم أنه من الله تعالى على خِلال أربع: إمَّا أن يتقبَّل طاعته فيفوز بثوابها، وإمَّا أن يشغله في الدنيا بطاعته عن الآثام فتقلّ خطاياه، وإما أن يتداركه بنظره فيلحقه بدرجة المحبين تفضلاً، وإن لم يستحق ذلك. فإن فاتته الثلاث لم يفته الرابع إن شاء الله ثواب النصب لله، وذلك أن قليل

القربة عند الكريم يعتق بها الرقاب من النار، فمن نجا من النار فما له منزلة غير الجنة، ألم تسمع إلى قوله تعالى ﴿فريق في الجنة وفريق في السعير﴾. فهل ترى لأحد منزلة بينهما، ومن أراد الدخول في عز المحبة فعليه بمفارقة الأحباب والخلوة برب الأرباب، فإن قيل فمن أين؟ قلت: ذلك فقد حدثني بعض العلماء. قال: قال إبراهيم بن أدهم لأخ له في الله: إن كنت تحب أن تكون لله ولياً وهو لك محباً فدع الدنيا والآخرة ولا ترغبن فيهما، وفرّغ نفسك منهما وأقبل بوجهك على الله يقبل الله بوجهه عليك، ويلطف بك، فإنه بلغني أن الله تعالى أوحى إلى يحيى بن زكريا عليهما السلام يا يحيى إني قضيت على نفسي أن لا يحبني عبد من عبادي أعلم ذلك منه إلاَّ كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي يتكلَّم به وقلبه الذي يفهم به، فإذا كان ذلك كذلك بغضت إليه الاشتغال بغيري، وأدمنت فكرته وأسهرت ليله وأظمأت نهاره.

يا يحيى أنا جليس قلبه وغاية أمنيته وأمله أهب له كل يوم ساعة فيتقرّب مني وأتقرَّب منه أسمع كلامه وأجيب تضرُّعه، فوَعزَّتي وجلالي لابعثنّه مبعثاً يغبطه به النبيون والمرسلون. ثم أمر منادياً ينادي هذا فلان ابن فلان وليّ الله وصفيّه وخيرته من خلقه دعاه إلى زيارته ليشفي صدره من النظر إلى وجهه الكريم، فإذا جاءني رفعت الحجاب فيما بيني وبينه فنظر إليَّ كيف شاء، وأقول: أبشر فوعزّتي وجلالي لأشفين صدرك من النظر إليّ، ولأجدّدن كرامتك في كل يوم وليلة وساعة، فإذا توجَّهت الوفود

إليه أقبَل عليهم فقال: أيها المتوجِّهون إليَّ ما ضرّكم ما فاتكم من الدنيا إذا كنت لكم حظاً، وما ضركم من عاداكم إذا كنت لَكم سلماً. قال: وحدثني الحسين بن أحمد الشامي قال سمعت ذا النون المصري يقول: قرأت في التوراة أن الأبرار الذين يؤمنون والذين في سبيل خالقهم يمشون وعلى طاعته يقبضون أولئك إلى وجه الجبَّار ينظرون، فغاية أمل االآمل المحب الصادق النظر إلى وجه الله الكريم، فلا ينعمهم في مجلسهم بشيء أكبر عندهم من النظر إلى وجهه، وبلغني أنه ينعمهم بعد النظر بأصوات الروحانيين وبتلاوة داود عليه السلام الزبور، فلو رأيت داود وقد أتى بمنبر رفيع من منابر الجنة ثم أذن له أن يرقى وأن يسمع حمده وثناءه، وقد أنصت له جميع أهل الجنّة من الأنبياء والأولياء والروحانيين والمقرّبين، ثم ابتدأ داود بتلاوة الزبور على سكون القلب عند حسن حفظه وترجيعه وتسكينه الصوت، وحسن تقطيعه، وقد وكل بها زمعها، وفاح منها طربها، وقد بدت النواجذ من الضاحكين بحبرة السرور، وأجاب داود هواء الملكوت، وفتحت مقاصير القصور، ثم رفع داود عليه السلام من صوته ليتم سرورهم فلما أسمعهم الرفيع من صوته برز أهل علّيين من غرف الجنّة وأجابته الحور من وراء سترات الخدور بمفتنات النغم، وطئت رحال المنبر واصطفقت الرياح فزعزت الأشجار، فتراسلت الأصوات وتجاوبت النغم، وزادهم المليك الفهم ليتم ما بهم من النعم فلولا أن الله كتب لهم فيها البقاء لماتوا فرحاً. قال أبو نعيم: فهل قالت العلماء في

صفة يوم الزيارة شيئاً تصفهم به؟ قال نعم. اجتمع جماعة من العباد فأتوا عابداً في بيته فقالوا له: قل خيراً وأوصنا بوصية. فقال: اقطعوا الدهر إخوتي بمناجاة ربكم، واجعلوا لكم هماً واحداً، فهو أهنأ لعيشكم. قيل له: فما ميراث ذلك إذا نحن فعلناه؟ فقال:

ترثوا العزّ والمنى وتفوزوا بحظّكم
فلعمري إن الملوك لفي دون ملككم

قيل له: فمتى نكون ملوكاً في الدنيا أو في الآخرة؟ فقال:

إنما تجعلون ملوكاً في الأخرى بزهدكم
حين يسنكم العزيز على قدر شكركم
فتكونوا في القرب منه على قدر حبّكم

قالوا: فما الذي يقطع بنا عنه عزّ وجلّ؟ فقال: لأنكم تتمادون في المنى وتتناسون فعلكم، وأنتم مع ذلك تتمنّوا أماني ليس تصلح بمثلكم وذلك أنكم شغلتم عن الإله بإصلاح عيشكم. قالوا: فبِم نستعين على الطاعة؟ قال: بذكر حبيب العابدين، إنكم لو سقيتم من حبّه مثل ما ذاق غيركم لنفى عنكم الرقاد على طيب فرشكم، وارتياحاً يقل عند المناجاة صبركم، ثم أرم ساعة ـ يعني سكت ـ ثم أقبل عليهم فقال: إخوتي في غد عند بعثكم، فوق نوق من النجائب معكم نبيكم، لتزوروا ـ ماجداً واحداً لا يملكم. قالوا له: فما حال الزوار عنده إذا

قصدوه تبارك اسمه معهم نبيهم؟ قال إنهم حين قاربوه تجلَّى لقربهم، فإذا عاينوا المليك تقضت همومهم، سمعوا كلامه وسمع كلامهم. قالوا فما علامة من سقاه الله بكأس محبته؟ فقال: علامته أن يكون عليل الفؤاد بذكر المعاد، بطيء الفتور في جميع الأمور، كثير الصيام شديد السقام، عفيفاً كفيفاً، قلبه في العرش جوَّال، والله مراده في كل الأحوال.

٢٦ ـ أقوال المحاسبي في ذكر مقام الموت:

عن محمّد بن مسروق قال سئل الحارث بن أسد عن مقام ذكر الموت ما هو عندك؟ مقام عارف أو مستأنف؟ فقال: ذكر الموت أولاً مقام المستأنف وآخراً مقام العارف. قيل له: بين من أين قلت ذلك؟ قال: نعم أما المستأنف فهو المبتدىء الذي يغلب على قلبه الذكر فيترك الزلل مخافة العقاب، فكلما هاج ذكر الموت من يغلب على قلبه الذكر فيترك الزلل مخافة العقاب، فكلما هاج ذكر الموت من قلبه ماتت الشهوات عنده. وأما العارف فذكره للموت محبة له اختياراً على الحياة وتبرُّماً بالدنيا التي قد سلا قلبه عنها شوقاً إلى الله ولقائه رجاء أمل النظر إلى وجهه، والنزول في جواره لما غلب على قلبه من حسن الظن بربه كما قيل:

طال شوق الأبرار إلى الله ... والله إلى لقائهم أشوق

قيل له: فكيف نعت ذكر الموت في قلب المستأنف وقلب

العارف؟ قال: الزاد وبرد الشعث ويهيّء الجهاز للعرض والقدوم على الله، ويكره أن يفاجئه الموت، ولم يقض نعمته في التوبة والاجتهـــاد والتحميص، فهـو يحب أن يلقى الله على غـــايـة الطهارة. وأما نعمته في قلب العارف فإنه إذا خطر؟ ذكـر ورود الموت بقلبه صادقت منه مـوافقة مـراده وكره التخلف في دار العاصين، وتخيَّر سرعة انقضاء الأجل وقصر الأمل، فقيرة إليه نفسه، مشتاق إليه قلبه، كما روي عن حذيفة بن اليمان حين حضره الموت قال: «حبيب جاء على فاقة لا أفلح من نـدم، اللهم إن كنت تعلم أن الموت أحب إليّ من الحياة فسهِّل عليّ الموت حتى ألقاك».

٢٧ ـ العلم والعمل والمنفعة:

قال المحاسبي: ما أغفل الناس عن أنفسهم، وعن أهوائهم، وعن عدوهم، فنعوذ بالله من الغفلة والسهو والنسيان الذي يُرْدي، ويفسد الأعمال! والحَرِيَّ: إن تارك الشر يكون تركه له على قدر ما يعرف، وما يخاف من ضرره وهو قائم بفرض تقرب إقامته إلى الله زلفى...

وطالب الخير يكون طلبه على قدر ما يرجو ويعرف من منفعته ومن أن العلم شيء، والعمل شيء والمنفعة شيء، وربما كان علم ولم يكن صاحبه به عاملاً، وربما كان علم وعمل ولم تكن منفعة، وربما كان علم وعمل ومنفعة، ثم يكون بعد ذلك إبطال وإحباط. وربما علم العبد وعمل وانتفع وسلم وتم.

خصال طالب الخير:

فطالب الخير لا يستغني عن خمس خصال، هي ما يحتاج فيه إلى علم حدود الأعمال وأحكامها، وأدائها إلى الله تعالى خالصة مخلصة، مشوبة بالصدق كما أمر وفرض من الأوقات التي أمر وفرض.

وصاحب الخير العامل به لا يستغني عن: الصدق، والصواب، والشكر، والرجاء، والخوف.

التمسك بالسنَّة:

فأما الصواب فالسنَّة، والسنَّة ليست بكثرة الصلاة تدرك ولا بكثرة الصيام والصدقة، ولا بالعقل والفهم، ولا بغرائب الحكمة ولا بالبلاغ والموعظة، ولكن بالاتباع والاستسلام إلى كتاب الله عزّ وجلّ ـ وسنّة رسوله ﷺ، والأئمّة الراشدين المهديين من بعده. وليس شيء أشد تهمة ولا أكثر ضرراً على السنّة من العقل، فمتى أراد العبد أن يسلك سبيل السنّة بالعقل والفهم خالفها وأخذ في غير طريقها[1].

الصدق:

وأما الصدق ففي أربعة أشياء: تعمل العمل ثم لا تزيد على ذلك جزاء ولا شكوراً إلَّا بصدق من حاله بلسانه، وهو عاص لله تعالى في صدقه، وهو المغتاب والنمَّام.

الشكر:

وأما الشكر فمعرفة البلوى[2]، وإذا عرف أن كل نعمة فهي من الله لا من غيره، وإنما هي بلوى يختبر بها عبده شكَر أم كفَر، وكل سوء صرف عن العبد فالله تعالى صرفه، ليشكره عبده أو

(١) المحاسبي ـ يحرص على الإعلاء من شأن العقل، وله كتاب خاص في العقل، وراجع أيضاً ما كتبه المحاسبي عن شرف العقل وسمو منزلته والنصائح الدينية، ولكنه يعارض أن يخضع العبد السنّة للعقل فإنما علينا اتباعها.

(٢) يحدِّثنا المحاسبي عن البلوى بشيء من التفصيل في فصل مستقل.

يكفره. فهذا من الشكر. فإذا عرف العبد أنه من الله، وعدَّه من نعمه عليه، ولم يُدخل معه فيه أحداً نفسه ولا غيرها، فقد شكره.

فالشكر متفاوت، والناس فيه متباينون متصاعدون، فهذا أدناه. وأما أعلاه فلا يبلغه أحد وليس له حدّ. ومنه أيضاً وهو يشبه ما وصفنا إلاَّ أنه أصل الشكر، أن يعرف العبد: أن ما به من نعمة فمن الله بقلبه، علم يقين، لا تخالطه الشكوك. فإذا عرف ذلك بقلبه، ذكره بلسانه، فحمده عليه، ثم لم يستعن بشيء من نعم المنعم على شيء مما يكره المنعم. وأعلى من ذلك الشكر: أن تعد كل بلاء[1] ينزل بك نعمة، لأن الله أنزل من البلاء ما قد أنزله بغيرك أشد وأعظم من ذلك الذي نزل به والناس يحتاجون عند ذلك إلى الصبر، وهو قائم بالشكر.

الرجاء:

وأما الرجاء فهو: أن ترجو قبول العمل، وجزيل الثواب عليه، حتى يهيج ذلك الرجاء عندك، فتعمل بالانكماش، وأنت ترجو القبول والثواب، وتخاف مع ذلك أن يرد عليك عملك، أو يكون قد دخلته آفة أفسدته عليك.

والراجون ثلاثة: رجل عمل حسنة وهو صادق في عملها،

---

(١) الابتلاء من الله قد يكون نعمة إن صبر العبد عليه ولكنه يصير نقمة من الله إن لم يصبر العبد على قضاء الله وقدره.

مخلص فيها، يريد الله بها ويطلب ثوابه، فهو يرجو قبولها وثوابها، ومعه الإشفاق فيها[1].

ورجل عمل سيئة ثم تاب إلى الله منها، فهو يرجو قبول توبته وثوابها، ويرجو العفو عنها، والمغفرة لها، ومعه الإشفاق ألَّا يعاقبه عليها، فهذان رجاؤهما رجاء صادق.

وأما الثالث فهو: الرجل يتمادى في الذنوب، وفيما لا يحبه لنفسه ولا يحب أن يلقى الله به، ويرجو المغفرة من غير توبته، وهو مع ذلك غير تائب منها، ولا مقلع عنها، وهو مع ذلك يرجو. وهذا يقال له: مغتر، متعلِّق بالرجاء الكاذب، والطمع الكاذب، والأماني الكاذبة. والقيام على هذا يقطع مواد عظمة الله من قلب العبد، فيدوم إعراضه عنه، ويأنس بجانب مكر الله، ويأمن تعجيل عقوبته، وهذا المغتر المخدوع المستدرج.

الخوف:

وأما الخوف فإن أمثالنا من الناس ينبغي أن يكون الخوف عندهم أكثر من الرجاء لأن الرجاء الصادق إنما يكون على قدر العمل بالطاعات.

---

(١) راجع ما ذكره البيهقي في شعب الإيمان، أن عبد الله بن خبيق قال: الرجال ثلاثة: رجل عمل حسنة فهو يرجو ثوابها، ورجل عمل سيِّئة ثم تاب فهو يرجو المغفرة، والثالث: الرجل الكذاب يتمادى في الذنوب ويقول: أرجو المغفرة. ومن عرف نفسه بالإساءة ينبغي أن يكون خلافه غالباً على رجائه. انظر: شعب الإيمان للبيهقي (٣/ ٢٣٩).

والخوف يكون على قدر الذنوب، فلو كان الرجاء يستقيم بلا عمل، لكان المسيء والمحسن في الرجاء سواء.

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هَاجَروا وجَاهَدُوا فِي سبِيلِ الله أولئك يَرجُونَ رحمة الله﴾[1] وقال: ﴿إِنَّ رَحمةَ الله قَرِيبٌ من المحْسِنِينَ﴾[2].

ومعنى الحديث الذي جاء: «لو وزن رجاء المؤمن وخوفه لاعتدلا»[3] ينبغي أن يكون خاصاً بين أهله، وهو مثل الحديث الآخر: «المؤمن كذي قلبين: قلب يرجو به، وقلبٍ يخاف به»[4]. فإنما هو إذا أحسن رجا وإذا أساء خاف، مع التوبة والندم والإقلاع. فأما من عرف نفسه بكثرة الإساءة، فينبغي له أن يكون خوفه على قدر ذلك، ورجاؤه على قدر ما يعرف من نفسه من الإحسان، ولأن الرجاء على قدر الطلب، والخوف على قدر القرب.

---

(١) البقرة: ٢١٨.

(٢) الأعراف: ٥٦.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، من طريق ثابت عن مطرف قال: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه ما رجح أحدهما على صاحبه، وكذلك من طريق الأصمعي قال: قال مطرف، ومن طريق ابن عيينة عن شعبة، ومن طريق الروذباري، انظر: شعب الإيمان، حديث رقم (٩٩٤)، (٩٩٥)، (٩٩٦).

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان بنحوه عن واثلة، حديث رقم (٩٧٣).

٢٨ ـ في البلوى والاختيار

واعلم وأَيْقن أن الدنيا كلها: قليلها وكثيرها، حلوها ومرّها وآخرها، وكل شيء من أمرها، بَلْوى من الله تعالى للعباد واختبار وبلواها وإن كثرت وتشعَّبت واختلفت فهو كله مجموع في خَلّتين: في الشكر والصبر.

فإما أن يشكر على نعمة، أو يصبر على مصيبة، قال الله تعالى: ﴿إنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾(١). وقال: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ الله لانتَصَرَ مِنْهُمْ ولكِن ليبلُو بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾(٢) وقال: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلوَكُمْ فيمَا آتَاكُمْ﴾(٣). وقال: ﴿خَلَقَ السَّمواتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيّام وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الماء لِيَبلوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾(٤). وقال: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُم لِبَعْضٍ فِتْنَةً أتصبِرُونَ﴾(٥). وقال: ﴿وَلَنَبلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ المُجَاهِدِينَ مِنكُم وَالصَّابِرِينَ﴾(٦).

وأكثر من ذلك في كتاب الله تعالى. وإنما كان بلوى آدم عليه السلام أقل من آية في كتاب الله تعالى: ﴿ولاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾(٧) وهو كله لك بلوى.

---

(١) الكهف: ٧.
(٢) محمّد: ٤.
(٣) الأنعام: ١٦٥.
(٤) هود: ٧.
(٥) الفرقان: ٢٠.
(٦) محمّد: ٣١.
(٧) الأعراف: ١٩، البقرة: ٣٥.

فتنة الناس:

وإن أكثر ما بُلي بـه العبد من أهـل الدنيـا: الناس. وأفتن الناس لك وأكثـر لشغلك: إنما هـو بمعارفـك منهم، وأشغل معارفك لك، وأكثرهم عليـك فتنة: من أنت بين ظهـرانيهم، ينظرون إليك، وتنظر إليهم، ويكلِّمونك وتكلِّمهم فإنك من لم يعرفك من أهل زمانك ولم تعرفه ولم تسمع به، كأنك لم تبتل بهم، وكأنهم لم يبتلوا بك، وكأنهم لم يكونوا من هذه الـدنيا التي أنت فيها. فارجع في صبرك إلى الله واستعن به، وانقطع إليه، واستأنس بذكره، وأقلل من الخطأ ما استطعت بل اترك القليل أيضاً تسلم، لقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾[1] فاهرب من الفتنة.

فرجع صبرك إلى معارفك، ومن أنت بين ظهرانيهم، فنظرك إليهم ونظرهم إليك فتنة، وكلامك معهم وكلامهم معك فتنة، وجفاؤك لهم وجفاؤهم لك فتنة لك، وكرامتهم لك وكرامتك لهم فتنة لك.

اعتبر من ذلك بموضع تمر فيه، فيه معارفك وموضع تمرّ فيه، ليس فيـه أحد يعـرفك. وهكـذا شهـوات المـطعم والملبس، وشهوات العين، ما يحل النظر إليه، وما لا يحل النظر إليه، مما كان من ذلك من غير البلدة التي أنت فيها، فأنت منها سليم،

---

(١) الفرقان: ٢٠.

وفتنتها مصروفة عنك إن شاء الله تعالى، لأن مؤنتها ساقطة، وهكذا أنت في جميع أمورك.

العمل فتنة:

وعملك الذي تعمل إنما هو فتنة أنت فيها، تريد أن تعرف فيها أعين الآدميين، وأكثرهم من يعرفك بالخير، فأعمالك لك فتنة. إن حججت فكنت خالياً ليس معك من يعرفك بالخير وتعرفه كان أسلم لك، وإلَّا فهم فتنة فانظر كيف تسلم منها. وإن خرجت من بلدة أنت فيها معروف بالخير، فخرجت منها وهم لا يعلمون أين تريد، فهو أسلم لك، وإن علموا فهي فتنة، فانظر كيف تسلم منها.

آفات الغزو:

وكذلك الغزو وبلوى أهل الغزو وما ينوبهم في مغازيهم من الفتنة، والبلية أعظم من بلية غيرهم وأعظم، من الذين يعملون بأعمال البر. وهم قبل أن يدخلوا في هذه الأشياء في عافية، فإذا دخلوا فيها جاءت الفتنة، من التحاسد بعضهم لبعض، وطمعهم فيما يرجون من السهام وطمعهم في الحملان(١)، وما يُجعْل الناس في سبيل الغزو.

ولقد سمعت رجلاً من المذكورين من أهل الغزو، وممن له

(١) الحُمْلان: ما يحمل عليه الغازي من الدواب.

غناء عند لقاء العدو واسم عظيم في المطوعة[1]، يقول: الخيل قد خرجت، ولم يقض لي الخروج فيها أما السلامة فأحب أن يسلموا، ولكن أكره أن يغنموا وليس أنا فيهم.

ولقد رأيت من يغار على بعض ما يقوى به. الغزاة حيث لم يعط هو وأعطى غيره كما يغار الرجل على بعض حرمه. ولقد رأيت من غزا ولم يغنم، ودّ أنه لم يكن غزا ولا يؤمّن يا أخي على كل من دخل في عمل من أعمال الدنيا والآخرة جميعاً إذا لحقتهم من عملهم الآفات التي تفسد الأعمال، أن يُدخل عليهم الشيطان[2]. فيها من العيوب والفتن مثل هذا وأكثر من هذا. فليحذر الرجل على كل عمل يعمله من أعمال الدنيا والآخرة، وليراقب الله فيه. ويعامله بضمير خالص، ويحذر اطلاع الله على فساد ضميره، ويحذر اطلاع المخلوقين على عمله، فإن كناس الحشوش[3] أكرم من هذا الغازي وهذا الحاج وهذا المعتمر وهذا المصلّي وهذا الصائم وهذا المصدّق.

وهذا الغازي الذي يكره أن ينال المسلمون من غنائم الروم،

---

(١) المطوع: المتطوع، وفي التنزيل العزيز: ﴿الذين يلمزون المتطوعين﴾ أي من يتطوعون للجهاد. ويقال لهم: المطوعة، والمطوعة بتخفيف الطاء وهم الغزاة المتطوعون من الشعب.

(٢) في الأصل «وأن يدخل عليهم الشيطان» وقد حذفنا الواو من المتن حتى يستقيم المعنى.

(٣) جمع حش: المخرج، لأنهم كانوا يقضون حوائجهم في البساتين، والمراد أن: كناس العذرة أكرم من ذلك الغازي.

والجالس ببغداد في بيته يحب أن ينالوا منهم.

فاحذر رحمك الله من قرب منك وقربت منه، فإن الذين بعدوا منك وبعدت منهم سلموا منك وسلمت منهم. يود أقوام غداً أنهم لم يكونوا سمعوا بآذانهم كثيراً من أعمالهم التي هي في رأي العين يرجى لصاحبها عليها الثواب الجزيل، والدرجات الرفيعة، ويغبطون من لم يكن عمل مثل ما عملوا كثيراً من حسناتهم. ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾[1].

كيف تكون أعمال البِرِّ مُهلكة؟:

يقال: إنها أعمال عملوها من أعمال البر كانوا يرون أنها هي منجيتهم، فكانت هي مهلكتهم، لما مازجها من الرياء وحب محمدة المخلوقين، واتخاذ المنازل بالطاعات، وإقامة الجاه، وحب القدر، والميل إلى ثواب المخلوقين. فلما وردوا على الله عزّ وجلّ وجدوه قد أحبط أعمالهم وهم لا يشعرون لأنهم كانوا تعجلوا ثواب أعمالهم في الدنيا من المخلوقين فافتضحوا وفضيحة ما هناك باقية، ولم يجدوا من ثواب أعمالهم إلاَّ كما وجد صاحب السراب وصاحب الرماد[2].

(١) الزمر: ٤٧.

(٢) عني بصاحب السراب ما جاء في قوله تعالى ﴿كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً﴾ كما عني بصاحب الرماد ما جاء في قوله تعالى: ﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف﴾.

فليس اسم الأعمال يراد، ولا تزيين ظاهرها، ولكن تقوى الله، وما يقرب إليه زلفى، فليت بين العبد وبين كل عمل يباعد من تقوى الله ومن الله بُعد المشرقين.

قال الله تعالى حكاية عن (إبليس العدو الخبيث ﴿ثم لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم﴾[1] فلو لم يكن في الكتاب من صفات إبليس إلاَّ هذا قد كان ينبغي للناس أن يحذروه.

ولو نظرت في أكثر الناس لوجدت أكثرهم إنما يؤتى من قبل البر وقلّة العناية بتصفية العمل، وما قد استحلَّت النفس من حب محمدة المخلوقين وقد يؤتى قوم كثير من قبل الآثام، إلاَّ أن علامة الفتنة في الناس جميعاً مختلفة. وأكثر الناس إنما يعرفون من قد فتن بالآثام، ولا يعرفون من قد فتن بالبرّ إلاَّ القليل من الناس، من أهل النور والفطن والفراسة والتوسُّم والكياسة. وذلك أن الذي يعمل بأعمال البر وهو يحب فتنتها أكثر من الذي يخاف فتنتها، والذي يجهل فتنتها أكثر من الذي يعلم فتنتها.

ومن الناس من يعلم فتن الأعمال ومبطلاتها، ثم يغلبه الهوى. ومنهم من يعلم وتقل عنايته فيغفل.

---

(١) الأعراف: ١٧.

الفتنة وخطرها:

واعلم أن الذي يعمل وقد علم الآفات التي تفسد الأعمال، ومعه العناية بنفسه وعمله، ومعه التيقظ وإزالة الغفلة، وهو مع ذلك مشفق خائف من الآفات ما يكاد يسلم إلاَّ من عصم الله تعالى، فكيف الذي يجهل ويغفل، ويغلبه الهوى، ويحب دخول الآفة. وقد طلبت الدنيا في زماننا خاصة بكل جهة، بالبر والإثم جميعاً افتتاناً فاحذر فتنة البر الآثم جميعاً لئلا ينزل بك ما نزل بغيرك من الترك والطلب.

نصيحته:

فلتكن همتك في النظر في مرآة الفكر كالهمة بالعمل، وأكثر من ذلك فإنه ليس شهوات الذنوب والسيئات، وشهوات المطاعم والمشارب والملابس والبناء والمراكب والمناكح والذهب والفضة بأغلب على أصحابها من شهوات الجاه وحب الرياسة، وإقامة القدر، واتخاذ المنزلة، وقبول الأمر والنهي، وقضاء الحوائج، وحب العدالة عند الجيران والأصحاب والإخوان والمدحة على أصحاب البرّ في حسناتهم.

وقد تجد الرجل يغلب شهوة الذنب، فيترك الذنب، ويصير إلى أعمال البرّ فيضعف عند تصفيتها، وتغلبه شهوة ما فيها، فيعمل حسنات كثيرة بقوة واقتدار عليها، وظمأ شديد وسهر، ولا يقدر على أن يغلب شهوته على تصفيتها فإنَّا لله وإنا إليه راجعون

مما قد نزل بنا وما أعظم خطرنا، وما أغفلنا عن عظيم الخطر!!.

تحذير من خداع الشيطان وهوى النفس:

واعلم أني لست أزهّدك في طلب أعمال البر، لأن كل عمل لا تعمله اليوم لا تجد ثوابه غداً، ولكن أحذرك خداع الشيطان، وهوى نفسك الأمّارة بالسوء وفضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه، وقد قال الله تعالى: ﴿فإذَا قَرأْتَ الْقُرآنَ فَاسْتَعِذْ باللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[1] وقال: ﴿إنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوه عَدُوّاً إنما يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[2]. وقال: ﴿وَكَذِلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾[3]. وقال: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[4]. وقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾[5] وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾[6] وقال: ﴿وَلاَ تَتَّبعِ الْهَوَى فَيُضِلَّك عَن سَبيلِ الله﴾[7] وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبعَ هَوَاهُ بَغَيْرِ هُدى مِّنَ الله إنَّ الله لاَ يَهدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[8]. وقال: ﴿واتَّبَعَ هَوَاهُ وَكان أَمْرُهُ فُرُطاً﴾[9] وقال: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ﴾[10].

---

(١) النحل: ٩٨.
(٢) فاطر: ٦
(٣) طه: ٩٦:
(٤) المائدة: ٣٠.
(٥) يوسف: ١٨.
(٦) ق: ١٦.
(٧) ص: ٢٦.
(٨) القصص: ٥٠.
(٩) الكهف: ٢٨.
(١٠) القمر: ٣.

مع أشياء في القرآن كثيرة في ذكر عداوة إبليس، وذمّ النفس والهوى.

٢٩ ـ آداب عامّة

قال: ومن لا يكون عالماً بما ورد عليه من الله يوشك ألَّا يكون عالماً بما ورد على الله تعالى منه.

واعلم يا أخي أنه من أطاع الله ولم يخفه فقد أطاعه في العمل، وعصاه في ترك الخوف، فكيف بمن يعصيه ولا يخافه؟

وقال: لو أنك لم تأخذ من الدنيا إلَّا قوتك، غير أنك لم ترد الله به قطع بك ولو تركت قوتك من الدنيا، ولم ترد الله به قطع بك.

وقال: لو عقلت عن الله بأمرين، لنظرت إليه بعظيم الشكر له، حيث لم يجعل دعاءه إلى الجنّة في ترك ما تحتاج إليه في الدنيا، ولم بجعل دعاءه إلى النار في حاجتك منها.

وقال: أعرف النعمة تكن من أهلها، فإن البهيمة لا تجد رائحة المسك، وإن حشي بها منخراها.

وقال: كن من أبناء الحق، يحبك الحق.

وقال: اجعل نفسك تابعاً في طريق الهدى، ولا تجلعها قائداً إلى طريق الهوى. وقال: احذر شهوة لا تبقى، وندامة لا تفنى.

وقال: أنيسك اليوم هو أنيسُكَ غداً في قبرك، وعملك اليوم هو عملك غداً، فانظر من أنيسك وما عملك؟.

وقال: ما ترك الحق لأهله في الدنيا سروراً، ولا أبقى الباطل لأهله من الآخرة نصيباً.

وقال: احفظ الله عند هواك، يحفظك عند لقائك[1].

وقال: تعوذ بالله من عمل ظاهره طاعة، وباطنه معصية.

وقال: من علم ما بين يديه، هان عليه ما في يديه.

وقال: إذا كملت معرفة الرجل بالدنيا تعجب من أبنائها، وإذا عمي عن معرفة الآخرة تعجب من أبنائها.

وقال: من عرف الدنيا قاطعها، ومن لم يعرفها انقطع إليها، ومن عرف الآخرة انقطع إليها، ومن لم يعرفها قاطعها.

وقال: أقل الشهوات لك نفعاً في الدنيا أضرّها عليك في الآخرة وأقل شهوات الآخرة مؤنة عليك في الدنيا أردّها عليك نفعاً في الآخرة.

وقال: اعبد الله بإرادتك ونيتك، قبل أن تصعد بعملك،

---

(١) أي يحفظك الله يوم القيامة، وفي الحديث الذي رواه أحمد في المسند وأبو نعيم في الحلية، عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يا غلام ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟ احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة». وللحديث بقية، انظر حلية (١) الأولياء (١/٣١٤)، وأحمد في المسند (١/٩٣). وحفظ الله بمعنى حفظ العبد نفسه عن محارم الله.

فعلى قدر ما أراد الله العبد في الدنيا للآخرة يستحق الذي في الآخرة.

وقال: ما أيسر الأمرَ على من احتسب نفسه عن منافسة أهل العز في عزهم، قد هدى إلى المرتقى الذي ارتقى منه المحبوب لقرب الله عزّ وجلّ.

وقال: اختيار العبد للعبودية شفاء، وبرد على الفؤاد، وجلاء للبصر.

وقال: طلب العبد للحرية بلاء وداء يغشى منه البصر.

وقال: العامل الناظر عمله على المحبة، والعامل السامع غير الناظر عمله على الاستثقال، فاعمل عمل من سمع ففهم، ونظر فأبصر، ولا تعمل عمل من سمع ولم ينظر.

وقال: رب نعمة تصير عقوبة ونقمة، ورب عقوبة تصير نعمة[1].

قال: إذا أردت أن تحب شيئاً فأكثر ذكره، فإن الذكر والنسيان لا يجتمعان.

---

(١) فالنعمة تصير نقمة: إذا استعملها الإنسان في معصية الله تعالى، فإن أنعم الله على العبد بنعمة: الصحة أو المال، فتصير نقمة إن استعملها فيها يغضب الله تعالى، والقرآن الكريم يقص علينا قصة قارون، وما أنعم الله عليه من كنوز كثيرة إلّا أنه استعملها في الفساد في الأرض فخسفه الله فيها. والعقوبة تصير نعمة: إذا ردّت الإنسان إلى الطريق المستقيم.

وقال: الحسنة الصادقة المشكورة يُثاب عليها صاحبها في الآخرة ويُزاد منها في الدنيا، يُزاد للشكر، ويُثاب للصدق.

وقال: من أنفع العبادة: أن يعامل العبد نفسه باستصغار الدنيا عندها. وقال: من أحسن العبادة: أن يمتلىء قلب العبد من حب الطاعة ويفيض، فإذا فاض عملت الجوارح على قدر ما رأت من القلب، فربما كانت الجوارح على قدر ما رأت من القلب، فربما كانت الجوارح في العبادة والقلب في البطالة.

ثبت المراجع

١ ـ المسلمون علماء وحكماء ـ د. حسن الشرقاوي.

٢ ـ الرسالة ـ للقشيري.

٣ ـ تاريخ بغداد ـ للخطيب البغدادي.

٤ ـ طبقات الصوفية للسبكي.

٥ ـ طبقات الشافعية للسبكي.

٦ ـ حلية الأولياء لأبي نعيم.

٧ ـ الفهرست لابن النديم.

٨ ـ التمرف المذهب الكلاباذي.

٩ ـ نتائج الأفكار العروس.

١٠ ـ تهذيب التهذيب ـ لابن حجر العسقلاني.

١١ ـ القاموس ـ المحيط البلاذري.

١٢ ـ البداية والنهاية لابن كثير.

١٣ ـ جامع كرامات الأولياء، يوسف بن إسماعيل النبهاني.

١٤ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ـ الشيخ محمّد فؤاد عبد الباقي.

١٥ ـ المعجم المفهرس لألفاظ الحديث.

١٦ ـ صحيح البخاري.

١٧ ـ صحيح مسلم.

١٨ ـ سنن ابن ماجة.

١٩ ـ سنن الإمام أحمد بن حنبل.
٢٠ ـ سنن الدارمي.
٢١ ـ سنن الترمذي.
٢٢ ـ مجمع الزوائد للهيثمي.
٢٣ ـ صحيح ابن حبان.
٢٤ ـ الطبراني الأكبر.
٢٥ ـ الطبراني الأوسط.
٢٦ ـ تقريب التهذيب.
٢٧ ـ شذرات الذهب لابن العماد.
٢٨ ـ الطبقات الكبرى للشعراني.
٢٩ ـ التصوف الثورة د. عفيفي.
٣٠ ـ الغزالي ـ المنقذ من الضلال.
٣١ ـ الرعاية للمحاسبي.
٣٢ ـ اعتقادات فرق المسلمين للرازي.
٣٣ ـ التوهم للمحاسبي.
٣٤ ـ فتح الباري.
٣٥ ـ النووي على مسلم.
٣٦ ـ إحياء علوم الدين للغزالي.
٣٧ ـ آداب النفوس للمحاسبي.
٣٨ ـ مسند الفردوس للديلمي.
٣٩ ـ مناقب ابن الجوزي.
٤٠ ـ الأعلام للزركلي.

٤١ ـ الجامع الصغير للسيوطي .
٤٢ ـ الجامع الكبير للسيوطي .
٤٣ ـ سنن النسائي .
٤٤ ـ الزهد للإمام أحمد بن حنبل .
٤٥ ـ الكشاف للزمخشري .
٤٦ ـ تمييز الطيب من الخبث .
٤٧ ـ أعمال القلوب والجوارح .
٤٨ ـ المعارف لابن قتيبة .
٤٩ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان .
٥٠ ـ القصد والرجوع إلى الله ـ المحاسبي .
٥١ ـ الإصابة لابن حجر العسقلاني .
٥٢ ـ أسرار الآيات .
٥٣ ـ أعمال القلوب والجوارح للمحاسبي .
٥٤ ـ المحاسبي كتاب العقل .
٥٥ ـ شعب الإيمان للبيهقي .
٥٦ ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي .
٥٧ ـ سير أعلام النبلاء للذهبي .
٥٨ ـ صفة الصفوة لابن الجوزي .

تم فهرس المراجع والكتاب

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام

على رسول الله ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين

فهرس محتويات
الحارث بن أسد المحاسبي

الفهـرس